

نظام طبقات العمر

دراسة في الأثربولوجيا المقارنة

بقلم أحمد أبريز

يعتبر موضوع التفاضل الاجتماعي وتقسيم المجتمع إلى هيئات أو فئات اجتماعية متميزة من أهم وأطرف الموضوعات في ميدان الأبحاث الاجتماعية والأثربولوجية . وقد كتبت في ذلك كتابات كثيرة تحاول أن ترد ذلك التفاضل إلى أصوله الاجتماعية مثل اختلاف روابط الدم كما هو الحال في العائلة والبدنة والعشيرة ، أو رابطة الجوار المكاني كما هو الحال في أهل الناحية الواحدة أو أهل الحى الواحد ، أو إلى الثروة والجاه كما هو الحال في كثير من نظم الطبقات الاجتماعية في مختلف المجتمعات ، أو إلى الدين والسلالة كما هو الحال مثلاً في الطوائف الهندية . والتمييز بين كل هذه الزمر والفئات الاجتماعية يقوم في الأصل على فكرة تفاوت أفراد المجتمع واختلافهم في مظهر معين - أو أكثر - من مظاهر الحياة الاجتماعية مما يترتب عليه توزيعهم بين جماعات مختلفة ، تشغل كل جماعة منها منزلة اجتماعية محددة تفرض عليهم القيام بواجبات وأعمال معينة كما تمنحهم حقوقاً وامتيازات مرسومة معلومة إزاء الفئات الأخرى التي ينقسم إليها المجتمع . بيد أن ثمة عدداً محدوداً من المجتمعات البدائية يقوم التفاضل الاجتماعي فيها على أساس مخالف لتلك الأسس السابقة التي كثرت فيها الكتابة ، وإن اتفق معها في الغرض والهدف . وأعني بذلك ترتيب أعضاء المجتمع - وبخاصة الذكور منهم - على أساس السن أو العمر . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد في حياته من الطفولة إلى المراهقة والشباب إلى الرجولة الكاملة ؛ فهذه تقسيمات عامة فضفاضة وتوجد في كل المجتمعات على اختلاف درجاتها ونصيبها من الحضارة والتقدم ، كما أنها تتعلق بالفرد من حيث هو فرد وليس من حيث هو عضو في مجتمع معين .

أى أنها - بقول آخر - لا تتخذ شكل النظام الاجتماعى Social institution .
 إنما المقصود هنا هو تقسيم أعضاء المجتمع أو الذكور منهم على الأقل
 إلى جماعات طبقية تنظم كل جماعة منها كل الأفراد الذين ينتمون إلى سن
 معينة بحيث يترتب السكان جميعا فى النهاية فى طبقات تعلق إحداها الأخرى
 ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التى تعلوها أو تأتى دونها
 فى السلم الاجتماعى ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف فى كل شئون
 الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة .

ويشيع هذا النوع من التمايز الاجتماعى فى مجتمعات معينة بالذات
 فى إفريقيا وأمريكا وبعض جزر المحيط الهندى وبعض قبائل أستراليا ،
 ولكنه لا يمثل بوضوح وقوة فى أى منها كما يمثل فى شرق إفريقيا
 عند تلك المجموعة من الشعوب التى تعرف على العموم باسم الشعوب نصف
 الحامية Half-Hamites وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية أو النيلوحامية
 Nilo-Hamites (1) . وهى كلها مجتمعات تفرد بنسق ميامى معين

(1) أنصاف الحاميين عبارة عن مجموعة كبيرة من الشعوب تغطى منطقة واسعة فيحة
 فى شرق إفريقيا وبخاصة فى كينيا ، وإن كان بعضها يقيم فى جنوب السودان مثل قبائل بارى Bari
 ولاتوكا Latuka وتوبوثا Topotha ، بينما يسكن البعض الآخر فى شمال تنجانيقا مثل بعض
 قبائل الماساى Masai . وتتسمى كل قبائل هذه المجموعة إلى أصل إثنولوجى ولغوى واحد ، فهم
 يجمعون بين العناصر الحامية Hamites والنيلية Nilotes ؛ كما أن بلادهم ذاتها تعتبر على حد تعبير
 الأستاذين باومان وفستمان « جسرا جغرافيا » يصل الحاميين الذين يسكنون الشمال الشرقى
 من إفريقيا بالشعوب النيلية التى تغطى أعالي النيل . أنظر فى ذلك : Baumann, H. and
 Westermann, D : *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, 1948, P.251.

وكلمة « أنصاف الحاميين » غير دقيقة تماما لأن هذه القبائل قد يكون بعضها أقرب إلى الحاميين
 لثة وعصرا ، بينما يقرب البعض الآخر اقترابا شديدا إلى النيليين . ولذا نجد دوايبرج Driberg
 مثلا يقسم هذه المجموعة إلى قسمين كبيرين يسميهما النيليين الحاميين Nilo-Hamites والحاميين
 النيليين Hamito - Nilotics ، ويضع تحت الشعبة الأولى قبائل لاتوكا وتوبوثا وجمي Jie
 وكاراموجونج Karamojong وتركانا Turkana ومورلا Murle وتسو Teso وسوك Suk
 أو بوكوت Pokot ، بينما يضع تحت الشعبة الثانية قبائل ماساى وكبجيس Kipsigis وكبير
 Keyu ومجموعة قبائل ناندى Nandi . أنظر فى ذلك : Driberg : " A Note on the
 = Classification of Half-Hamites in East Africa " ; *Man*, vol. 39; No. 19 .

وبطراز خاص من البناء الاجتماعي . والغرض من هذه الدراسة المقارنة لنظام طبقات العمر هو التعريف بهذا النوع الفريد من النظم الطبقيّة ومحاولة تفسيره وتبيين وظيفته الاجتماعيّة أو الدور الذي يؤديه في البناء الاجتماعي في تلك المجتمعات . وما يؤسف له أن الكتابات التي تناولت هذا النظام بالدراسة والتحليل لا تزال قليلة جدا . إذ لا نكاد نجد سوى كتابين اثنين (١) يعالجان الموضوع معالجة جزئية تنقصها الدقة في كثير من المواضع ، وإن كان هناك عدد لا بأس به من المقالات والأبحاث التي نشرت في المجلات والدوريات العلمية والتي تعالج في الأغلب بشيء من التفصيل دقائق هذا النظام في مجتمعات معينة بالذات . وقد بلغ بعض هذه الأبحاث حدا كبيرا من الدقة والإتقان والعمق . وعلى هذه المقالات والأبحاث سوف يكون معظم اعتمادنا في هذه الدراسة التي سوف تقتصر بالضرورة على المجتمعات والقبائل النيلوحامية . والعامل الوحيد الذي يفرض علينا هذا التحديد هنا هو توفر المراجع والمعلومات الصحيحة الدقيقة .

= وثمة تقريبات أو تصنيفات أخرى لا داعي لتعرض لها أو الدخول في تفاصيلها هنا ؛ مثل تصنيف هنتجفورد الذي يرد فيه على التصنيف السابق . راجع في ذلك :

Huntingford : "On the Classification of Half - Hamites in East Africa" ; *Man*, Vol. 39; No. 185

وعلى أي حال فإن العلماء الذين تعرضوا لهذه المسألة ينفردون بعدم إمكان وضع تصنيف نهائي لهذه الشعوب . وعلى العموم فالأغلب في الكتابات الأنثروبولوجية هو استخدام كلمة « النيليين الحاميين » لكل هذه القبائل ، وهذا هو ما سوف نتبعه هنا . ويسهل التمييز في النيليين الحاميين بين خمس مجموعات على أساس اللغة هي : (أ) مجموعة القبائل التي تتكلم لغة الباري مثل قبائل باري و قبائل مانداري Mandari ؛ (ب) مجموعة القبائل التي تتكلم لغة اللاتوكا مثل قبائل لانوكا ذاتها و قبائل لانجو Lango ؛ (ج) المجموعة التي تتكلم لغة التسيو ومنها قبائل تسو وتو بوثا وتركانا وكاراموجوج ؛ (د) مجموعة قبائل ماساي ؛ (هـ) وأخيرا مجموعة القبائل التي تتكلم لغة الناندي وهي قبائل ناندي وكهيسيس وكير و بركوت وغيرها . راجع في ذلك :

Greenberg : "Studies in African Linguistic Classification : The Eastern Sudanic Family" ; *Western Journal of Anthropology*, VI, p. 143-599;

Dryan and Tucker : *Distribution of the Nilotic and Nilo-Hamitic Languages of Africa*; p p. 27-37 .

Eisenstadt, S. N. : *From Generation to Generation; Age Groups and Social Structure* (Routledge & Kegan Paul, 1956); Prins, A. H. J : *East African Age-Class Systems?* (Walters, 1953) .

ولما كان منهج الدراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية يفترض أن أى نظام اجتماعى لا يمكن فهمه حق الفهم إلا في ضوء النظم الاجتماعية الأخرى النائدة في ذلك المجتمع نظراً لما بين تلك النظم المؤلفة للبناء الاجتماعى من تساند وترابط وتفاعل ؛ ولما كان الهدف من الدراسة الأنثروبولوجية هو في النهاية التعرف على وظيفة النظام موضوع البحث (1) ، فإنه يستحسن لكي نفهم نظام طبقات العمر أن نتعرف أولاً على الملامح الأساسية لذلك الطراز من المجتمعات التى يشيع فيها نظام طبقات العمر ، ثم ننقل بعد ذلك إلى دراسة الطريقة التى تتكون بها طبقة العمر بشيء من التفصيل ثم دراسة ميكانيزم النظام كله أو الكيفية التى يعمل بها ، لنصل في النهاية إلى تبيين الوظيفة الاجتماعية التى يؤديها النظام في حياة تلك المجتمعات وفي بنائها الاجتماعى .

١

تسمى القبائل والشعوب التى تعرف نظام طبقات العمر إلى ذلك الطراز من المجتمعات التى يطلق عليها عادة اسم المجتمعات الانقسامية Segmentary societies أو المجتمعات المتعددة الأقسام Polysegmentary societies والتى تعتبر من أبسط أنواع المجتمعات الإنسانية في تركيبها ودرجة تقدمها . وينفرد هذا الطراز من المجتمعات ببعض خصائص هامة تميزه عن غيره من الأطرزة الاجتماعية . وأولى هذه الخصائص هى ارتكاز البناء الاجتماعى على نظام التوزع أو التقسيم الإقليمى . فأرض القبيلة تنقسم إلى عدد من الأقاليم أو الوحدات المكانية التى تنقسم بدورها إلى وحدات إقليمية أصغر فأصغر ، بحيث تحتفظ كل وحدة منها بشخصيتها الذاتية التى تتمثل في استقلالها الاقتصادى والسياسى والحربى والدينى من ناحية ، وإن كانت الوحدات المتماثلة في الدرجة تتحد معاً من الناحية الأخرى لتؤلف وحدة أكبر لها نفس الاستقلال والتمايز السياسى والاقتصادى والحربى والدينى وهكذا . وتختلف

(1) أنظر مقال « الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع » - مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية - العدد العاشر ١٩٥٦ ، صفحات ٨٥-١٠٠ .

عدد هذه الأقسام من قبيلة لأخرى كما تختلف أسماؤها ، ليس فقط في اللغات واللهجات الوطنية المحلية الخاصة بكل قبيلة بل وأيضا في الدراسات والكتابات التي بأيدينا ، حيث يترجم الكتاب المختلفون الكلمة الواحدة في المجتمع الواحد بأسماء كثيرة مختلفة . ويكاد معظم الكتاب يتفقون الآن - لتسهيل أمر البحث والمقارنة ولتغلب على الفوضى السائدة من جراء تعدد الأقسام واختلاف المصطلحات - على الاختصار على التمييز عند كل هذه الشعوب بين ثلاثة أقسام إقليمية أساسية يسمونها : الأقسام الإقليمية الابتدائية أو أقسام الدرجة الأولى primary sections ، والأقسام الإقليمية الثانوية أو أقسام الدرجة الثانية Secondary sections ثم أقسام الدرجة الثالثة tertiary sections . والمقصود بهذا القسم الأخير أصغر وحدة إقليمية تكون لها شخصية سياسية واقتصادية وحرية ودينية متميزة وواضحة ، وهي نواة كل الأقسام والتجمعات الأخرى الكبيرة . وتمثل الشخصية السياسية المستقلة لتلك الوحدة الإقليمية الصغرى في وجود مجلس يضم الشيوخ وكبار السن فيها ، وتكون وظيفته النظر في المنازعات التي تنشأ بين أعضاء هذه الوحدة وكذلك البت في الأمور التي تتعلق بأمنهم وسلامتهم . ويتمثل استقلالها الاقتصادي في قصر حق استقلال الحقول وموارد المياه والمراعي المحيطة بها على أهلها دون غيرهم من سكان الوحدات المماثلة المجاورة والا اعتبر ذلك تعديا على حقوقها . كذلك تؤلف هذه الوحدة الصغرى من بين أبنائها القادرين على حمل السلاح قوة تدافع بها عن كيانها أو تقوم بالإغارات الليلية السريعة الخاطفة على مواطن الأعداء لتسليم ماشيتهم على الخصوص . وأخيرا فإن لهذا القسم الإقليمي الصغير (رئيسا) دينيا هو أحد شيوخ الإقليم يشرف على الحفلات الدينية والطقوس السحرية التي تستهدف خير القسم كله ، مثل استئزال المطر أو ممارسة الشعائر التي من شأنها زيادة خصوبة الأرض والماشية . ويتجمع كل عدد من هذه الأقسام المتجاورة وتتحد معا لتؤلف قسما إقليميا ثانويا تكون له نفس الخصائص ، بمعنى أن يكون له مجلس للفصل بين المنازعات ويتألف من ممثلين لكل مجالس الأقسام الإقليمية الصغرى وهكذا . كما تتحد الأقسام الثانوية لتؤلف قسما ابتدائيا على منالها وتمطها . فالقسم الإقليمي الكبير إذن

ليس في حقيقة الأمر غير مجرد تكوار للأقسام الصغيرة التي تدخل في تكوينه كما يعكس نفس بناء تلك الأقسام المكونة له . وربما كان القسم الثانوي هو أهم هذه الأقسام في معظم القبائل والشعوب النيلوحرابية ، وذلك نظراً لمساحته ودرجة تركيز الحياة الاجتماعية فيه . فهو ليس من الصغر إلى الحد الذي تمتنع عنه إلا أبسط الظواهر الاجتماعية كما هو الحال في أقسام الدرجة الثالثة حيث تمارس شؤون الحياة الاجتماعية على نطاق ضيق محلي ، كما أنه ليس من الاتساع إلى الحد الذي يفقد البناء السياسي معه معالمة وملاحمة . كما هو الشأن في أقسام الدرجة الأولى أو الأقسام الابتدائية . وكثيراً ما يكون القسم الثانوي هو القسم الإقليمي الوحيد الذي يتمتع بوجود مجلس خاص به ، أي تكون له وظائف سياسية واضحة كما هو الحال عند قبائل تسو وتوبوتانا ولاتوكا مثلاً . وفي هذه الحالة لا تعدو الأقسام الابتدائية أن تكون مجرد أقسام جغرافية غير وظيفية (1) .

والخاصية الثابتة التي تميز هذه المجتمعات هي انعدام الترابط بين هذه الأقسام الإقليمية السياسية وأقسام العشيرة على النمط الذي نجده مثلاً عند قبائل النوير أو عند بعض قبائل البدو في الصحراء ، فالعشيرة النيلوحرابية - وهي أكبر وحدة قرابية ينحدر أعضاؤها من جد واحد هو الذي يعطي العشيرة اسمها - لا ترتبط بمكان معين بالذات ، أي أنها ليست جماعة متوطنة أو متمركزة . وهذا يصدق على كل الأقسام التي تنقسم العشيرة إليها ، أي البدنات بلرجانها

(1) يقل وضوح هذا البناء السياسي الإقليمي عند القبائل الرعوية منه عند القبائل الأكثر استقراراً وارتباطاً بالأرض ، أي التي تعتمد اعتماداً كبيراً على الزراعة حيث تتخذ العلاقات الاجتماعية في أي قسم من أقسامها ، وكذلك بين مختلف الأقسام ، شكلاً منظماً ثابتاً . فانتحال الرعي كوسيلة للعيش يضعف صلة الناس بأى بقعة معينة محددة من الأرض نظراً لانتقالهم الدائمة وتجوالم المستمر مما يؤدي إلى عدم تمييز الحدود الإقليمية وإلى تداخلها حتى الضياع والازوال . ولعل أفضل مثال لذلك هو ما نجده عند قبائل البوكوت . فالبناء الإقليمي السياسي عند البوكوت البرراعين من سكان التلال واتسع إلى أبعد حدود النوسوج والتميز بحيث تؤلف كل وحدة إقليمية هناك وحدة سياسية وقضائية واقتصادية ، بينما يبين هذا البناء إلى التبع والاختفاء عند البوكوت الرعاة . راجع في ذلك :

Perišany :- "The Age - Set System of the Pastoral Pokot" ; *Africa*, XXI, 1951.

المختلفة ، وبذلك فلا توجد أية علاقة قوية مباشرة بين نظام العشيرة والنسب للسياسي ، أي أن نظام العشيرة ليست له أية وظيفة سياسية محددة . وإنما تنحصر وظيفته في المجال العائلي على الخصوص ، إذ يتدخل في تنظيم الزواج تبعاً لقواعد الإكسوجامية (exogamy)^(١) وفي تنظيم ملكية الماشية وأحياناً ملكية عيون الماء والمساهمة في دفع الدية وما إلى ذلك . ولكن على الرغم من عدم تمركز العشيرة ومن انتشار أفرادها في كل الأقسام الإقليمية التي تنقسم إليها أرض القبيلة فإن أبناء العشيرة الواحدة يحملون دائماً اسمها معهم أينما ذهبوا ، كما يحملون شارة الطوغم الذي ينسبون أنفسهم إليه ويتخذونه رمزاً لهم (٢) .

(١) العادة أن العشيرة clan كلها تعتبر هي الوحدة الإكسوجامية أو الانغترابية التي يحرم على أفرادها الزواج من خارج ، أي من عشيرة أخرى أجنبية ، وذلك نظراً لاعتدال جمع أفرادها من نفس البدن وشاركتهم في نفس الطوغم ، مما يعنى اشتراكهم في وحدة الدم وهو ما يجعل الزواج بين أفراد العشيرة الواحدة أقرب إلى الزنا بالمحرم incest . ولكننا نجد في بعض العشائر أن الفروع الصغرى للعشيرة - وهي التي تتألف في العادة من أفراد ينتمون إلى ثلاثة أو أربعة أجيال فقط - هي التي تولد الوحدات الانغترابية، أي أنه يباح بذلك الزواج بين أفراد العشيرة بشرط أن يكونوا منتمين إلى فروع أو بدلات مختلفة ، وذلك على الرغم من أن العشيرة كلها هي أيضاً طوطمية . وأفضل مثال لذلك هو قبيلة الكبجيس . انظر في ذلك :

Peristiany, J. G : *The Social Institutions of the Kurdigs*; p. 117.

كذلك يذكر هنتنغفورد أن قبائل الناندو تنقسم إلى خمس عشائر اندوجامية أي تبيح الزواج الداخلي أو الإضوائي . ولكنه يلاحظ أن كل عشيرة من تلك العشائر الخمسة لها أكثر من حيوان بطوطم واحد ، أي أن العشيرة الواحدة تنقسم إلى عشائر صغرى لكل منها طوطمها الخاص ، وإن كانت كلها تحمل اسم العشيرة الرئيسية وتنتمي في نفس الوقت إلى الطوغم الرئيسي . راجع :

Huntingford, G. W. B : *Nandi Work and Culture*; p. 6 and p p, 105 - 7

(٢) يستقى من ذلك قبائل المانداري واليوكوت الزراعيين حيث يوجد تلامح واضح بين البدنة وأقسامها من ناحية والتوزيع الإقليمي السياسي من الناحية الأخرى وحيث يلعب نظام البدنات هناك دوراً هاماً في البناء السياسي . فالبدنات هناك ترتب ترتيباً تصاعدياً تبعاً لمركزها في القسم الإقليمي الواحد ، إذ تشغل البدنة التي كان لها فضل السن في احتلال موقع القرية مثلاً مركزاً أعلى وأكثر امتيازاً على بقية البدنات كما يقوم رئيسها بوظيفة الزعيم الديني الذي يشرف على شؤون الزراعة والمقبول وتوزيع الأرض الزراعية وتقديم القرابين والشعائر ، كما تد يشغل وظيفته كبير المحكمين في المنازعات وبذلك يجمع بين السلطين الدينية والزمنية . راجع :

Beech : *The Suk, Their Language and Folklore*; pp. 6-7 and p. 36; Peristiany :

" Age - Set System ... " ; op. cit.

والخاصية الثالثة التي يمتاز بها البناء الانشائي في تلك الشعوب هي عدم وجود جهاز إداري تتركز في يديه السلطة التنفيذية في المجتمع كله. فالمجتمعات النبلوحامية تنتمي إلى ذلك الطراز من المجتمعات التي لا تؤلف دولة Stateless Societies (1). والواقع أننا لا نجد في أي قسم من أقسام القبلة رحينا يتمتع بأي نصيب من السلطة التنفيذية فضلا عن وجود رئيس أعلى للقبيلة كلها، أو نظام هرمي من الرؤساء على ما نجد في المجتمعات التي تؤلف دولة State societies. ومن المعروف أن من مقتضيات الرياسة السياسية القدرة على القسر والقهر، أي القدرة على اتخاذ القرارات القاطعة النهائية وتنفيذها قسراً إن احتاج الأمر بالاستعانة بجهاز إداري يخضع للرئيس ويأتمر بأمره. وصفة القسر أو التمهر تنعدم تماما في كل هذه المجتمعات. فجالس كبار السن التي تتألف من شيوخ الأقسام الإقليمية والتي تنظر في المنازعات التي تنشأ بين أعضاء هذه الأقسام لا تستطيع إصدار أحكام نهائية فيما يعرض عليها، وإنما هي توصي فقط أو تنصح المحكمين إليها دون أن تكون لها القوة على تنفيذ تلك القرارات أو إجبار المتقاضين على قبول الرأي الذي تشير به. ويجب بعض الكتاب أن يستخدم كلمة (رئيس) أو (رؤساء) ليصفوا بها بعض الشخصيات البارزة في تلك المجتمعات. ولكن الواقع أن أحدا من هؤلاء (الرؤساء) لا يتمتع بأي قدر من السلطة الزمنية. وعلى ذلك فإطلاق كلمة (رؤساء) عليهم هي من قبيل المجاز فحسب، لأنهم إنما يستمدون نفوذهم ومكانتهم إما من تفوقهم ونبوغهم في مسائل الطب والسحر كما هو الحال فيما يتعلق (برؤساء) الماساي والكيبسجيس، وإما من قدرتهم على استئصال أو صنع المطر كما هو الحال عند الباري والمانداري. فهم إذن (رؤساء) دينيون وليسوا رؤساء سياسيين بالمعنى المفهوم (2).

(1) Fortes, M. and Evans-Pritchard, E. E ; (eds.) : *African Political Systems*; (1) p. 5 and p. 13.

(2) يوجد عند الكيبسجيس عدد كبير من هؤلاء (الرؤساء)، لعل أهمهم على الإطلاق ما يصونه *Kiruogndet neo* أو القاضى الأعظم، ويصفه بريستيان بأنه لا يتمتع بأي سلطة فودية خاصة وإنما هو مجرد ناظر بلسان المجلس. كذلك يوجد في كل مجموعة من مجموعات =

والخلاصة من هذا العرض السريع الموجز هي أن المجتمعات التي سوف ندرس نظام طبقات العيرة فيها مجتمعات انقسامية ، بمعنى أنها : -

١ - تنقسم أرض القبيلة فيها إلى عدد من الوحدات الإقليمية المنقسمة ، وتنعكس كل وحدة منها نفس بناء ووظائف الوحدة الكبيرة التي هي جزء منها ، ولكن الوحدات الصغيرة حين تتخذ لتؤلف الوحدة الكبيرة الشاملة لا تفقد شخصيتها الاجتماعية تماما . ٦

٢ - تنقسم العشيرة وكل الزمر الاجتماعية الأخرى التي تقوم على روابط الدم إلى وحدات قرابية متمسكة هي أيضا ، وليس لكي من هذه الوحدات القرابية دور واضح في الحياة السياسية إلا عند الهوكوت والمانداري ، بل إن أثرها لا يظهر حتى في أحداث الحياة اليومية العادية كالتعاون في العمل مثلا وذلك لتوزع أفرادها وتبعثرهم ، ومن هنا كانت روابط الجوار أقوى وأهم من روابط الدم .

٣ - نظام مجالس الوحدات الإقليمية نظام غير فعال من الناحية السياسية لعجز هذه المجالس عن تنفيذ القرارات التي تتخذها .

ولكن إذا كان الأمر كذلك ، وإذا لم تكن تمت حكومة أو سلطة مركزية تشرف على شئون للضبط والقانون ، فما هو إذن الجهاز الذي يدير أمور الحياة في تلك المجتمعات وينظم قواعد السلوك في داخل المجتمع نفسه كما يرسم علاقة كل مجتمع منها بالمجتمعات الأخرى ؟

== القرى هناك (أي القسم الثاني) رئيس المراسم والشعائر يسونه . Poyot ap Tumdo . راجع : Peristiany : Kipsigis , p p. 176-80 .

أما الماساي فان فوزبروك يتق عنهم وجود رئيس أهل لم وإن كان يوجد في كل قسم من الأقسام الابتدائية شخص أو (رئيس) يدعى Laibon ولكن وعظافته في الأصل ووظائف شعائرية خاصة ، فهو يعتبر بمثابة الطبيب الساهر . كذلك لقبيلة كلها طبيب أهل أو طبيب أول ولكنه هو أيضا لا يتمتع بأي سلطات زمنية أو تنفيذية . راجع :

Fosbrooke, H. A : " An Administrative Survey of the Masai Social System " . T. N. R. , No. 26 ; 1948 .

إن الفرض الذي نلديه هنا هو أنه في المجتمعات الانتسابية التي لا تتمتع
 بسلطة مركزية أو هيئة إدارية تنفيذية ، والتي لا يعلب نظام القرابة فيها دورا
 أساسيا ، يقوم نظام طبقات العمر بمهمة التنظيم والضييق والتكامل الاجتماعي ،
 كما يعمل على حفظ وحدة المجتمع وتماسكه . وهذا هو ما سنحاول البرهنة
 عليه في الأجزاء التالية من هذه الدراسة .

٢

كان أول من أدخل اصطلاح "age-sets" الذي ترجمه « طبقات العمر »
 في ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو المرحوم الأستاذ رادكليف براون
 Radcliffe - Brown ، وذلك في غضون مناقشة طويلة على صفحات مجلة *Man*
 في عام ١٩٢٩ (١) . فقد كان ثمة تردد طويل وعدم ثبوت فيما يتعلق
 باختيار مصطلح يطلق على ما نسميه الآن « نظام طبقات العمر » وقدمت
 اقتراحات كثيرة . فنجد درايبيرج Driberg مثلا يكتب مقاله عن هذا النظام
 في دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان « مراحل العمر Age - grades » ،
 كما اقترح غيره من العلماء مصطلحات أخرى كثيرة مثل « عشائر العمر
 age clans » أو « جماعات العمر age groups » وغيرها . وظل الخلاف
 قائما حتى حسم رادكليف براون الأمر باستخدام كلمة age - set .
 وفي عام ١٩٣٦ نشر الأستاذ إيفاتز برينشارد مقالا فيها عن « طبقات العمر
 عند النوير » (٢) . استخدم فيه ذلك المصطلح الجديد بالمعنى الذي أعطاه له
 رادكليف براون ، وكان ذلك إيذانا بانتشار هذا المصطلح في الكتابات
 الأنثروبولوجية انتشارا كبيرا ، وإن كنا لا نزال نجد من حين لآخر بعض
 محاولات فردية غير موفقة لإطلاق تسمية جديدة على هذا النظام (٣) .

(١) c. f. *Man*, 1929, No. 13.

(٢) Evans - Pritchard, E. E: "The Nuer Age - Sets" ; *S. N. R.* , 1936, p p. 233 sqq.

(٣) مثال ذلك أن برز A. H. J. Prios حاول استخدام كلمة age-class بدلا من كلمة
 age-set الشائعة الآن في كل الكتابات الأنثروبولوجية المعاصرة وذلك في كتاب له ظهر =

وقد يحسن التمييز منذ البداية بين لفظي « طبقة العمر age-set » و « مرحلة العمر age-grade » ما ذمنا من استخدامهما كثيرا في هذا المقال .

يعرف رادكليف براون « طبقة العمر » بأنها « جماعة محددة منظمة تضم جميع الأشخاص الذين ينتمون إلى سن واحدة ؛ وغالبا ما تألف من الذكور وحدهم .. ففي إفريقيا مثلا - أو على الأقل في شرق إفريقيا وجنوبها - تتكون طبقة العمر في العادة من جميع الذكور الذين يكبرون معا في وقت واحد .. وسواء كان التحاق الشخص بطبقة عمر معينة يحدث بمجرد ولادته أو بعد تكريسه فإنه يظل معتبرا عضوا في تلك الطبقة طيلة حياته » (١) .

ويضيف إيفانز پريتشارد إلى ذلك أن « لأفراد الطبقة الواحدة أسماء واجدا مشتركا يعرفون به ، كما أنهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعي ، ويتبعون نفس أنماط السلوك في معاملتهم بعضهم بعضا » ويتخون موقفا واحدا إزاء غيرهم من الناس ممن ينتمون إلى طبقات العمر التي تعلو طبقتهم أو التي تكون أدنى منها في المراتبة » (٢) . أما كلمة « مرحلة العمر » فإنها تطلق عادة على تلك « الأقسام المعروفة التي تنقسم إليها حياة الفرد في انتقاله من الطفولة إلى الشيخوخة » (٣) . والعادة أن الناس يميزون في حياة الفرد بين ثلاث مراحل مختلفة هي مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة ومرحلة الرجولة الكاملة ، مع وجود بعض اختلافات طفيفة من مجتمع لآخر لهذا الصدد .

= في عام ١٩٥٣ بعنوان *East African Age-Class Systems* ، ولكن أحدا من الكتاب لم يستجب لهذه الدعوة رغم أن النظام في أساسه نظام طبق . فقد وُجِدَ أن استخدام كلمة *class* وغيرها من الكلمات التي يقترحها برز لن ينتج عنها إلا إشاعة اللبلة بعد أن اتفق العلماء بالفعل على استخدام كلمة *set* .

أنظر في ذلك نقدا للكتاب المذكور ، وقد نشرناه في مجلة *Africa* (عدد يولييه ١٩٥٤ صفحة ٢٧٩ - ٢٨٠) .

(١) Radcliffe-Brown : *op. cit.*

(٢) Evans-Pritchard : *op. cit.*, p. 234.

(٣) Radcliffe-Brown : *op. cit.*

وتتصدر الفوارق الأساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، أعنى طبقات العمر ومراحل العمر ، في نقطتين : الأولى هي أن المرء لا يستطيع بحال أن يغير طبقة العمر التي ينتمى إليها . فكما يقول رادكليف براون إن ولادة الفرد أو تكريسه في طبقة عمر معينة يعنى انتماءه إلى تلك الطبقة طيلة حياته ، بينما هو ينتقل بالطبع ونحس نموه من مرحلة عمر معينة إلى المراحل التالية بمرور الزمن وبفضل تقدمه في السن . والنقطة الثانية هي أن فكرة التماسك والتميز التي تعتبر ركنا جوهريا في « طبقة العمر » لا تظهر على الإطلاق في « مرحلة العمر » . فطبقة العمر هي جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها في أداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كلها كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي كوحدة أيضا وظائف معينة في الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر في مرحلة العمر . أي أن الطبقة العمرية بمعنى اجتماعيا بينما يصطبغ مفهوم « مرحلة العمر » بصبغة فيسيولوجية غالبة .

ومع ذلك ، فثمة علاقة وثيقة بين الاثنين . والواقع أنه لن يمكن فهم نظام طبقات العمر إلا بدراسة هذه الطبقات في ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الإنسان في حياته ، لأن احتلال الطبقة مركزا اجتماعيا معينا وانتقالها من مستوى اجتماعي إلى مستوى آخر أعلى منه يرتبط ولا شك بالانتقال التدريجي بين مراحل العمر المختلفة على ما سترى حين نتكلم عن ميكانيزم النظام . كما أن الطبقات التي ينضم إليها سكان المجتمع تتوزع في العادة بين مختلف المراحل العمرية . وقد يحسن أن نوضح هذه النقطة الأخيرة بإعطاء بعض أمثلة قليلة :

المثال الأول من قبيلة الكبيجيس التي درسها بريستلي ... يميز الكبيجيس في حياة الفرد بين ثلاث مراحل هي مرحلة الطفولة والصبا ومرحلة البطولة ومرحلة الشيخوخة . ولكن نظام طبقات العمر عندهم يتألف من سبع طبقات ، لكل طبقة منها اسم خاص تعرف به ، ويتتابع ظهور الطبقات أو اختفاؤها واحدة بعد الأخرى تبعاً لتكريس فئات جديدة

من الشبان أو موت، شيوخ القبيلة وكبار السن فيها بحيث، أننا لا نجد في أي لحظة من اللحظات إلا أربع طبقات فقط تضم كل أعضائه المجتمع المكورسين . وإحدى هذه الطبقات تتألف من الأفراد الذين يكونون في مرحلة البطولة بينما تنتظم الطبقات الثلاثة الأخرى جميع الأفراد الذين ينتمون إلى مرحلة الشيخوخة . أما الأفراد الذين يكونون في مرحلة الطفولة أو الصبا فإنهم لا يؤلفون طبقة متماسكة متبايزة لأن تكوين الطبقات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتكريس القتيل عند وصولهم إلى سن البلوغ . فالشبان المراهقون الذين تمارس عليهم شعائر التكريس في وقت واحد يؤلفون طبقة عمر واحدة ، ثم يتوالى ظهور الطبقات واحدة إثر الأخرى ، على ما يظهر في الشكل التالي ، بتكريس فئات جديدة من الشباب ، حتى إذا ما تم ظهور الأسماء البعثة بدأت الأسماء تكرر من جديد وهكذا .



والمثال الثاني لشعلة من قبائل الناندي الذين يشبهون الكيبجيس سبها كثيراً في تنظيمهم الاجتماعي وفي نظام طبقات العمر . فهم يميزون مثلهم بين نفس العدد من المراحل ومن الطبقات ؛ ولكن توزيع الطبقات بين مراحل العمر يختلف هناك عنه عند الكيبجيس ، لأن مرحلة الطفولة عندهم تشمل على طبقتين كاملتين تضم إحداهما الأطفال الصغار وتضم الأخرى الصبيان الذين قاربوا من البلوغ وأصبحوا بالتالي على وشك المرور بشعائر التكريس . أما مرحلة البطولة فإنها تضم طبقة واحدة تعرف باسم طبقة الحيارين ، بينما تشمل مرحلة الشيخوخة على أربع طبقات متفاوتة في المركز والمستوى الاجتماعي .

والمثال الثالث والأخير نأخذ من قبائل المورلا Murle الذين يقسمون حياة الفرد إلى أربع مراحل متتالية هي الطفولة والمراهقة والرجولة الكاملة أو ما يسمونه بمرحلة "رجال القرية Village-men" ثم الشيخوخة ، بينما يتألف نظام طبقات العمر عندهم من إحدى عشرة طبقة . فالأطفال والصبيان يوزعون في طبقتين كما يوزع المراهقون أيضا في طبقتين تعرفان بطبقتي الأبطال المحاربين ، أما رجال القرية أو الرجال المكملون النضج فانهم يؤلفون أربع طبقات ، وأخيرا يتوزع الشيخ وكبار السن أى الأفراد الذين في مرحلة الشيخوخة بين ثلاث طبقات متمايزة .

ومن هذه الأمثلة الثلاثة نرى أن مرحلة العمر الواحدة قد تضم أكثر من طبقة عمر واحدة في نفس الوقت ؛ أى أن الأفراد الذين ينتمون إلى مرحلة معينة من مراحل العمر الفسيولوجي كالمراهقة أو الرجولة الكاملة قد يتوزعون بين عدد من الطبقات ، بحيث تحتل كل طبقة منها مركزا أو مرتبة اجتماعية معينة بالنسبة للطبقات الأخرى التي تشترك معها في نفس المرحلة .

ويزيد النظام تعقيدا أن الطبقة الواحدة تنقسم هي ذاتها إلى وحدات صغيرة قد تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر وهكذا . وتقوم كل هذه الانقسامات على أساس الاختلاف في العمر الاجتماعي . ولن نحاول الدخول هنا في تفصيل هذه الأقسام واختلافها من مجتمع لآخر واختلاف الأسماء التي يطلقها الكتاب المختلفون عليها ، ونكتفي لتسهيل التحليل وعقد المقارنة بأن نميز بين قسمين أساسيين من تلك الأقسام التي تنقسم إليها طبقة العمر . فالطبقة تنقسم أولا إلى ما سوف نسميه هنا بالأفواج ، كما أن الفوج قد ينقسم إلى ما سوف نسميه بالأرهاب . ونعني بالفوج هنا أكبر الأقسام التي تنقسم إليها طبقة العمر ، وكثيرا ما تكون هي الأقسام الوحيدة في الطبقة . أما الرهط فإننا نعني به جميع الأفراد الذين يكرسون في حفل واحد أى الذين يعمرون بشعائر الشكريس في نفس الوقت . والعادة أن يكون لكل فوج ولكل رهط

اسم خاص يتميز به عن غيره من الأفواج أو الأرهاط ثم تزول هذه الأسماء بعد ظهور الطبقة كوحدة . وهذا ينقلنا إلى الكلام عن تكوين طبقة العمر ثم عن ميكانيزم النظام كله .

٣

سبق أن قلنا إن طبقة العمر تتكون في العادة بعد إقامة الشعائر الخاصة بتكريس الشبان المراهقين ، وأن الشخص لا ينتمي إلى إحدى الطبقات إلا بعد تكريسه ، وإن كانت هناك بعض قبائل قليلة تلحق الفرد بطبقة من الطبقات بمجرد ولادته كما هو الحال عند الناندي مثلا . يبدو أنه حتى في مثل هذه الحالات لا تتخذ (الطبقة) شكل الجماعة المتحدة الممايزة التي تتمتع بوجود مستقل وكيان متماسك إلا بعد أن يتم بالفعل تكريس كل الأفراد الذين تتألف منهم ؛ أي أنها لا تظهر كوحدة وظيفية إلا بعد التكريس . أما قبل ذلك فإن أفراد (الطبقة) لا يمارسون معا أي عمل جماعي منظم كما أنهم لا يشعرون بنفس التضامن أو نفس المصالح التي تشكل وتبلور بوضوح بعد التكريس . صحيح أنهم قد يراعون ماشيتهم معا في نفس الرقعة من الأرض ، ولكنهم يفعلون ذلك تلقائيا بفضل تقاربهم في السن وبالتالي في الميول والأهواء ، دون أن يكونوا خاضعين لأي نوع من الالتزام الذي يفرضه عليهم فيما بعد انتمائهم إلى طبقة عمر واحدة لها قواعدها وقوانينها الصارمة الدقيقة فيما يتعلق بالتعاون والتماثل والتضامن . فكان طبقة العمر لا يعترف بها اجتماعيا إذن إلا بعد إتمام تكريس أفرادها ، على اعتبار أن التكريس هو الذي يعطى الفرد شخصيته الاجتماعية ويجعل منه عضوا في المجتمع .

وليس هنا مجال تفصيل القول في شعائر التكريس الخاصة بتكوين الطبقات أو بالحقاق الشبان المراهقين بطبقة عمر جديدة ، ولو أن للموضوع طرافته ودلالاته الاجتماعية . ولكننا نرجو أن نورد له مقالا مستقلا . ويكفي هنا أن نقول إن هناك نوعين من شعائر التكريس : شعائر جماعية وهي الأغلب

وشعائر فردية تمارس عند عدد قليل من القبائل . وفي الشعائر الجماعية نجد أن الشبان هم الذين يطالبون بإقامة الحفلات الخاصة بتكريسهم ويحاولون في سبيل ذلك الحصول على موافقة شيوخ القبيلة اللذين يبدون لهم السماح والإذن بتكوين الطبقات الجديدة ، وكذلك الحصول على موافقة طبقة الأبطال المحاربين القائمة بالفعل والتي سوف يحلون هم محلها بعد تكريسهم وتكوينهم لطبقة جديدة تتولى وظيفة الحرب (١) . وتتمارس شعائر التكريس الجماعية في العادة على أساس أكبر الوحدات الإقليمية السامية ؛ ويعتبر الختان أهم عنصر في تلك الشعائر (٢) وإن كان الغنيان يتعرضون إلى جانب ذلك إلى أنواع أخرى كثيرة من التعذيب ولقنون شتى من الخن والمغاب (٣)

(١) تتنوع العلاقات بين (الطبقة) والشبكة التكوينية والطبقة التي تشمل مرتبة البطولة بالفعل بالعداء الشديد عند سطر الشعوب التي تعرف نظام طبقات العمر ، ولكن منتجعورد يتكرر وجود مثل هذا الصراع البدائي ، وإن كان في نفس الوقت يعرف بأن طبقة المحاربين لا تبدي استعدادا ولا ترغبة بتكوين الطبقة الجديدة التي سوف تحل محلها والتي تنزف تدفعها بذلك إلى التخل عن منزلتها الاجتماعية وعن امتيازاتها الطبقية . ويتخذ المداء بين هاتين الطبقتين قبل أن يتم التكريس والتكوين شكل اعتيادات متكررة يقوم بها المحاربون ضد الغنيان المطالبين بالتكريس بمنحهم بذلك عن تكوين الطبقة الجديدة .

(٢) يوجد الختان عند مجموعة الشعوب الناطقة باللغة الناندية (فيما عدا البركوت الرعاة) وكذلك عند الماسلي . ويمارس البركوت الرعاة بدلا من ذلك بعض الشعائر التي تعرف باسم Sapana وهي تقود حول ليام التي تعني بعض أحد الكيران القوية بشروط أن يقتله من الطبقة الأعلى . ويعتبر هذه الشعائر تعرف عند كل مجموعة الشعوب الناطقة بلغة التور . ويعتبر مثل الحيران من الطبقة الأولى علامة على التصح الفيزيقي وبذلك يرخذ بشرا بنجاح الشاب في حياته المثيلة كشارب . راجع في ذلك :

Ouliver: *A Preliminary Survey of the Turkana*, pp. 192—3; Nalder: *A Tribal Survey of Mongolia Province*, p. 70 and pp. 94—6; Fosbrook, *op. cit.*, pp. 26—8.

(٣) يتعرض الشبان في كثير من المجتمعات إلى أنواع من التعذيب تختلف في الشدة والقسوة من مجسح لآخر مثل خلع بعض الأسنان عند التوبوش أو تشطخ الجبهة والرأس عند المانداري أو الوثنيز بالأشوك والشعيرات الشوكية عند الكيسيس والمورلا ، أو الجلد بالسياط عند التبور . وقد نجد أنواعا من التعذيب أقل قسوة من هذه وتظهر على الخصوص في إسبير الغنية على تناول طعام ساخن ملتب أثناء حفلات التكريس ، أو حرمانهم من الطعام تماما في ذلك اليوم نظما يفعل البركوت الرعاة . انظر في ذلك :

وهي كلها تهدف إلى اختيار قوة احتمال الشبان على علاقة الصعاب التي سوف يصادفونها حين يحلون مركز المحاربين بالأبطال . فالتكريس إذن هو الرخصة التي بمقتضاها يعتبر الفرد لأول مرة في حياته عضواً في المجتمع ويحتل مركزاً اجتماعياً محدداً ويخضع له مباشرة وظيفته الجنسية . هذا بالطبع إلى جانب إلقائه ببطقة العمر الخاصة به (١) . أما شعائر التكريس الفردية فإنها توجد على الخصوص عند البوكوت الرعاة والتراكاف ، وهي لا تحتاج إلى تجمع الشبان للمطلبة بتكريسهم . وإنشاء طبقة عمر جديدة ، وإنما تقام حفلة للتكريس لكل منهم على حدة وانفراد على أن يلحق بعد تكريسه بالطبقة التي هي بسبيل التكوين . ولا يعتبر الختان عنصراً هاماً في تلك الشعائر الفردية وإنما هم هذه الشعوب أكبر الاهتمام بمسألة طعن الحيوان التي سبق ذكرها .

وتكوين طبقة العمر يتم تدريجياً ويستغرق وقتاً طويلاً قد تمتد إلى بضعة أعوام قبل أن تبلور الطبقة كوحدة اجتماعية وظيفية . والعامل الذي يتحكم في ذلك هو موسم التكريس ، أي موعد بدء الشعائر والفترة التي تستغرقها تلك الشعائر قبل إعلان إتمام تكوين الطبقة الجديدة . وقد ذكرنا من قبل أن طبقة العمر تنقسم في العادة إلى عدد من الأفواج ، وأن الفوج ينقسم إلى عدة أرهاط . ولكن الواقع أن الرهط هو الذي يتكون أولاً نتيجة لتكريس عدد من الشبان معاً في وقت واحد . ثم يتألف الفوج بعد ذلك بتجميع عدد من تلك الأرهاط واندماجها في وحدة مهيأة ، وأخيراً تتكون الطبقة ذاتها باندماج هذه الأفواج واتخاذها اسماً واحداً عاماً محل أسماء الأرهاط والأفواج الداخلة في تكوينها (٢) .

= Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 6-33; Id : "The Age-set System of the Pastoral Pokot", *Africa*, p. 190., Nalder : *op. cit.*, p. 71.

Peristiany : *The Kipsigis*, p. 6-33; Beech : *The Suk*, p. 21; Barton : (١). "Notes on the Suk Tribe", *J. R. A. I. Li.* p. 91.

(٢) العادة أن يطلق على كل رهط من الشبان الذين يكرمون معاً اسم خاص بهم يميزهم عن غيرهم من الأرهاط، وحين تتخذ الأرهاط مكونة فوجاً واحداً فإنها تتخذ اسماً مشتركاً هو اسم الفوج كله ، بينما تسقط أسماء الأرهاط المكونة لذلك الفوج من الاستعمال ويتكرر ذلك عند تأليف الطبقة . وتتخذ الأرهاط والأفواج أسماءها في معظم الأحوال من الأحداث الغامضة التي تقع أثناء =

ويختلف عدد الأرهاط والأفواج التي تنقسم إليها طبقة العمر من مجتمع لآخر . فحفلات التكريس عند الكيبجيس مثلا كانت تقام في الماضي كل سبعة أعوام ، وكان الشبان الذين يكرسون في كل موسم يؤلفون فوجا واحدا ، ثم تنضم كل ثلاثة أفواج معا لتكون طبقة واحدة ؛ أي أنه كانت تظهر عندهم طبقة عمر جديدة كل حوالي إحدى وعشرين سنة تضم جميع الأفراد الذين يكرسون في تلك الفترة من الزمن ، رغم ما بينهم من اختلاف في السن الفيزيقي . أما الآن ، فلم يعد هناك ضابط دقيق لتحديد مواعيد بدء مواسم التكريس وانتهائها ، وأصبحت هذه الحفلات تقام على فترات أقصر مما كانت عليه في الماضي . بل وكثيرا ما تقام كلما توافر عدد كاف من الشبان الذين بلغوا السن المناسبة ، وبذلك لم يعد من المستطاع تحديد عدد ثابت للأفواج الداخلة في تأليف الطبقة ؛ وإن كان بريستياني يرى أن الطبقة قد تشمل سبعة أفواج (١) أو أكثر ما دامت لا تتحكم في تكوين الأفواج أية مقاييس زمنية ثابتة . أما الناندي فإن شعائر التكريس تقام عندهم مرة كل خمسة عشر عاما تقريبا ؛ وتظل قائمة لمدة أربعة أعوام متتالية ، وبذلك تشمل الطبقة عندهم أربعة أفواج متباينة يضم كل فوج منها الأفراد الذين مروا بتلك الشعائر في نفس العام ، فارتبطوا بذلك بعضهم ببعض بروابط قوية متينة تظهر في معيشتهم معا وفي تلازمهم في العمل والتجوال وجلسهم للسمر حول نار واحدة أثناء الليل (٢) . وتقام شعائر التكريس عند الماساي مرة

— موسم التكريس . من ذلك أن أحد الأفواج عند الكيبجيس أطلق عليه اسم (شبن) لأنه تكون في الوقت الذي حل فيه الشبن الانجليزي عن الروبية الهندية في التعامل في شرق إفريقيا ، كما أطلق على فوج آخر اسم (قطار) لمصادفة تكوينه وقت إدخال السكك الحديدية هناك . أما أسماء الطبقات العمرية في بعض المجتمعات النيلوحامية ثابتة لا تتغير ويتكرر ظهورها في النظام كله واحدا بعد الآخر . وقد نجد بعض الاستثناء من ذلك عند الهوكوت الزراعيين وعند الناندي حيث نجد للأفواج أسماء ثابتة لا تتغير وإنما يتكرر ظهورها من طبقة لأخرى ، بينما قد تتغير أسماء الطبقات ذاتها في بعض المجتمعات بمعنى أن كل طبقة جديدة تتخذ اسما جديدا لم يستعمل من قبل . راجع :

Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 43—5; Barton, *op. cit.*, pp. 60—61.

Peristiany : *Ibid.*, p. 44 (١)

Hollis : *The Nandi*, p. 12 (٢)

كل سبعة أعوام ، وتستمر هي أيضا حوالي أربع سنين . ويجبرنا فوزبروك أن نجعل الأفراد الذين يختون في نفس العام يؤلفون رهطا واحدا له اسم خاص به ، ثم تندمج الأرهاط الأربعة التي تتكون في موسم التكريس الواحد لتؤلف فوجا واحدا يسمى باسم خاص . وأخيرا يندمج كل فوجين متتاليين في طبقة واحدة تضم بذلك جميع الأفراد الذين يكريسون في فترة خيبة عشر عاما تقريبا ، وهي الفترة التي يستغرقها كل موسمين متتاليين من مواسم التكريس (١) .

والأمر لا يسير دائما على مثل هذه الدقة والرتابة في كل المجتمعات . فكثيرا ما لا يكون هناك مواسم محددة مرسومة للتكريس . فحفلات التكريس عند الهوكوت الزراعيين مثلا لا تقام في مواعيد معلومة ، وإنما يختن كل الأفراد بين العاشرة والعشرين من عمرهم كلما توافر عدد ملائم منهم ، وإن كانت العادة أن تقام حفلات الختان والتكريس كل ثلاث سنوات تقريبا على ما يذكر بارتون وبيتش ، ثم تتألف طبقة عمر جديدة من جميع الأفراد الذين يختون في بحر خيبة عشر عاما وهكذا (٢) .

بيد أن هذه الاختلافات في عدد الأفواج والأرهاط بل وفي عدد طبقات العمر لا يترتب عليها أية فوارق في الأسس الجوهرية التي يقوم عليها النظام ذاته في أي من هذه المجتمعات . فالخطوط الرئيسية واحدة ومتشابهة وإن اختلفت التفاصيل . فطبقة العمر تتكون بالتدرج خلال فترة معينة من الزمن تحدها مواسم التكريس ذاتها ، وبعد أن يتم تكريين الطبقة يُنظر

(١) Fosbrooke : *op. cit.*, pp. 26—30; Hollis : *The Masai*, p. 262 .

أما ستيغان Stigand فإنه يقول في كتابه *The Land of the Zinj*, (P. 212) إن كل موسم من مواسم التكريس ينتج عنه تكوين ثلاثة أرهاط فقط من الأفراد الذين يختون خلال ثلاثة أعوام متتالية ، بينما يقول هيندي Hinde في كتابه *The Last of the Masai*, (p. 40) إن هناك حفلة تكريس واحدة تقام مرة كل خمسة أعوام ، ويختن فيها جميع الأفراد الذين في سن ملائمة يؤلفون فوجا واحدا ، أو أن الفوج يتكون - تبعا له - كل خمسة أعوام .

(٢) Barton : *op. cit.*; p. 87; Beech : *op. cit.*, p. 6. n. 2 .

إليها من خارج على أنها وحدة مناسكة متعاونة لا يعتد معها بالتمييزات الداخلية بين الأرهاط والأفراج. أي أن كل طبقة تتصرف - بكل أفرادها وأرهاطها وأفراجها - كجسم واحد إزاء الطبقات الأخرى دون أن تعبر التمييزات والتقسيمات الداخلية في تلك الطبقات أدنى اعتبار، وإن كانت نفس هذه التمييزات والتقسيمات تظل ذات أثر فعال فيما يتعلق بتنظيم التشارك داخل الطبقة ذاتها لأن أفراد الأرهاط الذي تكون أولا يعتبرون أعلى منزلة من أفراد الأرهاط التالية ولذا ينتظرون منهم أن يدؤوا شيئا من التجلة والاحترام في معاملتهم (١).

وليس التكريس هو العامل الوحيد في تكوين وقيام طبقة العمر كوحدة وظيفية متميزة. فهناك عامل آخر لا يقل عنه أهمية ويتمثل في ممارسة بعض الشعائر التي يعمتها تقاعد الطبقة التي تشغل المحاربين ويحال أفرادها إلى مرتبة أعلى منها هي مرتبة الشيوخ، وبذلك يخلو الطريق تماما أمام الطبقة الجديدة الناشئة. والواقع أن هذه الشعائر تحقق غايتين متكاملتين: الأولى هي إدماج الوحدات العمرية الصغرى في الوحدة للكبرى أي في طبقة عمر واحدة، ما دام التكريس لا يمارس على كل أفراد الطبقة في نفس الوقت. وبمقتضى ذلك الاندماج يحتل كل أفراد الطبقة نفس المستوى ونفس المركز الاجتماعي وتتناسى فوارق العمر الفسيولوجي ويُعطى الاعتبار الأول للعمر الاجتماعي. والغاية الثانية هي زخزعة طبقة المحاربين وترقيتها إلى مرتبة شيوخ العشرة مما يستتبع بالضرورة زخزعة جميع الطبقات الأخرى الموجودة بالفعل ونقلها إلى مراكز أعلى من تلك التي كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة (٢).

Bernardi : "The Age-System of the Nilo-Hamitic Peoples", *Africa*, (1)

XXII, p. 319.

(٢) ترسيخ أهمية هذه الحفلات إلى أن طبقة العمر الجديدة لا تمارس حقها في القيام بوظيفة المحاربين إلا بعد تقاعد الطبقة التي تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات الخولاها لطبقة ناشئة. وقد يحدث هذا الانتقال آليا كما هو الحال عند اليوكوت الزراعيين والتركمان والمورلا، بمعنى أنه بمجرد انتهاء موسم التكريس يستتر كل الأفراد الذين كرسوا خلال خمسة =

وهذه الحفلات التي بمقتضاها يتقاعد طيقة الأبطال وتحمل طيقة الصغر الجديدة محلها تمارس هي أيضا بالضرورة في أوقات معينة تقدر في معظم المجتمعات التي بأيدينا معلومات وإفية عنها بحولنا حسة عشر عاما في العادة . وفي أثناء هذه الفترة تكون هناك طيقة عمر تشغل مركز البطولة وتمارس دون غيرها من الطبقات وظيفه الحرب وبخاصة الحرب الهجومية . وتعرف هذه الفترة باسم «مدة الطيقة» . فكان «مدة الطيقة» هي الفترة التي تخصها

عشر عاما تقريبا هم الأبطال المحاربون ، وإن كانوا لا يتفردون مع ذلك هذه الوظيفة ، لأن كل الرجال المكرسين يشاركون بالفعل في الحرب وبخاصة الحرب الدفاعية . أنظر في ذلك : Barton, op. cit., p. 90; Boech : The Suk p. 6.

ويذكر جليشر أن التركانا لا يمارسون أية شعائر لتسهيل هذا الانتقال أو التفاعل من وظيفة الحرب والبطولة . وفي ذكر أن هذه الرخصة تحدث آليا . أنظر : Gulliver : Survey, p. 129.

ولكن الأغلب أن هذه الرخصة لا تحدث إلا بممارسة هذه الشعائر التي يمكن تسميتها شعائر الإحالة أو شعائر التفاعل . وحيث توجد هذه الشعائر فإنها تتألف من عنصرين أساسيين : الأول هو ذبح الماشية وبخاصة الثيران ، ويقوم بتلك العملية نفس الطيقة المتقاعد ويطلق على هذه الحفلات اسم *Sager* (عند الكيبجيس) أو *Saket* (عند الناندي) أو *Sakobet* (عند الكيرو والكاراموچونج) وهي كلها تعني ذبح الثور . والعنصر الثاني عنصر رمزي بحث يعكس لنا معنى انشعار بل والموقف الاجتماعي كله ؛ إذ تقوم الطيقة المتقاعدة بتسليم كل ملابسها وأغطية الرأس والعلامات والشارات الخاصة بها والتي تدل عن البطولة إلى الطيقة الجديدة ثم يرتدون بدلا منها عباءات الشيوخ . راجع :

Périsiany : *The Kipsigis*, pp. 34—7; Mássam, op. cit., pp. 57—64; Hunting—ford : *Nandi Work and Culture*, p. 14; Fósbrooke; op. cit. p. 30; Fox : "Further Notes on the Masai of Kenya Colony", *J. R. A. I.*, LX, p. 453; Leakey : "Some Notes on the Masai of Kenya Colony", *J. R. A. I.*, LX, p. 169.

وعلى العموم فقد أبطلت هذه الحفلات أخيرا عند معظم هذه القبائل وبخاصة عند الكيبجيس والناندي والتسو لحوف حكومات المستعمرات من تكتلات الأبطال المسلحين الذين ينتمون إلى الطيقة الناشئة واطبقة المتقاعد بكامل عدتهم وعتادهم ، وخشية ما قد ينجم عن مثل هذه التجمعات من ثورات أو قبائل ضد هذه الحكومات . ويخبرنا هنتجنفورد في هذا الصدد أن أحد الزعماء المينيين الذين يعرفون باسم *orkatvot* عند الناندي أراد أن يشتر فرصة هذا التجمع فيوجه المحاربين ضد ابريطالين لإخراجهم من أرض المحيرة .

يلفعل أى طبقة من الطبقات فى مرتبة البطولة قبل أن تنتقل إلى الشيخوخة ؛
 وإن كان هذا لا يمنع من أن يكون التكريس قائماً طيلة هذه الفترة لتكوين
 الأرواح والأفواج التى سوف تتألف منها الطبقة الجديدة . وعلى ذلك ،
 فإذا كانت الطبقات الجديدة تظهر على فترات معينة هى ذاتها « مدة الطبقة »
 للحاربة ، وإذا كانت هذه الطبقة الحاربة تتقاعد بعد تلك الفترة ذاتها وتنتقل
 إلى مرتبة اجتماعية أعلى ، فإنه يمكن القول إذن بحدوث زحزحة فى كل
 الطبقات المكونة للنظام على فترات مرسومة معينة وبالتالي حدوث تغير
 فى كل الأوضاع والمراكز الاجتماعية وكذلك الوظائف المتعلقة بكل طبقة
 من تلك الطبقات ؛ أى أنه تحدث نقلة إلى أعلى فى كل مكونات البناء
 الاجتماعى مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات .
 ففى أى وقت من الأوقات يظل عدد الطبقات والعلاقات وأنماط السلوك
 بين تلك الطبقات ثابتة لا تتغير وإن كان الأفراد أنفسهم ينتقلون فى هيئة
 طبقة من مرتبة لأخرى ، وتتغير تبعاً لذلك وظائفهم وواجباتهم وحقوقهم .
 والواقع أن ذلك التقدم الذى يحدث على فترات مرسومة دقيقة مع ثبات
 الصورة البنائية يؤلفان أهم مبدأين فى كل نظام طبقات العمر ، رغم ما قد
 يبدو بينهما من تناقض ظاهرى . فالطبقات كلها تنتقل من مرتبة إلى أخرى
 أعلى منها فى ترتيب تصاعدى كلما تكونت طبقة جديدة . ولكن العلاقات
 النسبية بين الطبقات التى تشغل مختلف المراتب تظل كما هى بدون تغير .
 ويكفى فى تلك المجتمعات أن يذكر الشخص اسم الطبقة التى ينتمى إليها
 ليُعرف وضعه فى المجتمع ولتعرف مكانته ومركزه بالنسبة لكل الأفراد
 الآخرين تبعاً لانتسابهم إلى طبقات أعلى أو أدنى من الطبقة التى ينتمى إليها ،
 بغض النظر عن سائر الاعتبارات الأخرى . فاختلاف الطبقات يستتبع
 بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر فى أدنى مستويات التمايز
 الطبقي بعد تكوينها مباشرة ، وتصل إلى أعلى تلك المستويات حين تقرب
 نهايتها ، أى حين يموت معظم أفرادها بفعل السن وتكاد تختفى من الوجود .
 وكل فرد يعرف بالضبط مختلف المستويات التى تشغلها مختلف طبقات المجتمع

لأن مركزه هو نفسه مرتبط بذلك (1) . وهكذا يمكن القول إن المراتب أو المراكز الاجتماعية تحتفظ بعلاقات ثابتة فيما بينها ، بينما تتصل طبقات العمر خلالها فتتحرك إلى أعلى ككل أو كوحدة متماسكة . وتكتسب في أثناء هذه التقلبات أو الحزكة إلى أعلى مكانة اجتماعية أكثر رقيًا وسموًا . كما يفرض عليها للقيام بواجبات والتزامات معينة وتتمتع بحقوق وامتيازات معلومة . إنماء الطبقات الأخرى الداخلة في تكوين النظام كله . فارتباط كل طبقة من طبقات العمر إذن بمرتبة اجتماعية ما هو ارتباط مؤقت تختلف مدته من مجتمع لآخر . ويتجدد هذا الارتباط على العموم بما أسماه « مدة الطبقة » من حيث أن تكوين طبقة جديدة ودخولها إلى مرتبة البطولة هو الذي يدفع طبقة المحاربين إلى مرتبة أعلى تشغلها طبقة أخرى تندفع بالتالي إلى مرتبة أعلى ، وهكذا .

٤

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر . وإن كان هناك ميل عام إلى التمييز بين ثلاث مراتب أساسية هي البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن (2) . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . فالبطولة وظيفتها الحرب ، بمعنى أن الطبقة التي تشغل تلك المرتبة يعهد إليها بأمر شن الإغارات على معسكرات وغنيمات القبائل الأخرى المعادية لسرقة الماشية التي تلعب دورا هاما في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، كما يوكل إليها - وحدها في الأغلب - القيام بالحروب الهجومية التي يقررها شيوخ العشيبة ،

(1) Bernardi : *op. cit.*, p. 321.

(2) وأما أنه في هذه الحالات القليلة لا ينظر إلى الصبيان غير المكرمين على أنهم يكوّنون طبقة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، أي أنهم لا يعتبرون وحدة متماسكة متباينة ولا تكون لهم وظائف اجتماعية معينة لأن لقبهم هذا التمايز والتماثل هو التكريس .

وذلك بعكس الحرب للدفاعية التي يشترك فيها كل أفراد المجتمع القادرين على حمل السلاح بما في ذلك النساء أحيانا ، وترتبط مرتبة الرجولة الكاملة بالاشتغال بأمور الحياة المدنية والاقتصادية والسياسية . وأفراد الطبقة التي تشغل هذه المرتبة يدخلون - إلى جانب الشيوخ - في تأليف مجالس الوحدات الإقليمية التي سبقت الإشارة إليها والتي تنظر في المنازعات الداخلية وتحاول إنهاءها . أما مرتبة الشيخوخة فإنها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هي التي تشرف على أمور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا في المجتمع وأقربهم بذلك إلى الموت وإلى العالم الآخر وأدناهم بالتالي إلى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس إليهم في الملهمات والأزمات ، كما يطلبون إليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ، ويقبلون آراءهم ويخضعون لمشورتهم ونصحتهم نظرا لمكانتهم الدينية الممتازة .

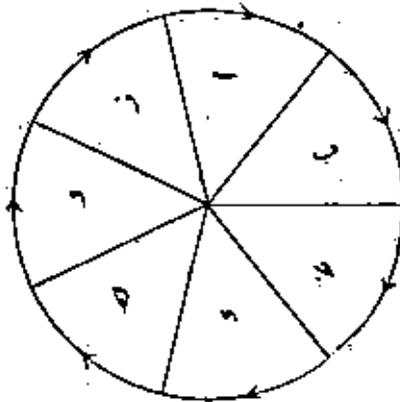
ويذهب بعض العلماء إلى أن مرتبة البطولة هي أهم مرتبة في هذا النظام من المراتب الاجتماعية ، وأن طبقة المحاربين الأبطال هي المفتاح الأساسي لفهم النظام كله ، وذلك على زعم أن نظام الطبقات مبني على أساسه وجوهره الوظيفة الحربية ، وأن الغرض الأول من تكوين الطبقات هو تزويد المجتمع بفتة متجددة من الأبطال المحاربين الذين لا غنى عنهم في مثل هذه المجتمعات التي يغلب عليها الطابع الرعوى والتي يعتبر القتال والإغارات والحروب جزءا أساسيا من حياتها اليومية . وسوف نرى فيما بعد أن هذا الرأي ليس دقيقا تماما وإن كان لا يخلو من الصدق . ولكن طبقة الأبطال المحاربين لها مع ذلك أهمية خاصة بالنسبة لفهم ميكانيزم النظام وطريقة عمله ، لأن تكوين هذه الطبقة هو الذي يتحكم في زخزحة الطبقات الأخرى الموجودة فعلا ، وبالتالي في تعيين الوظائف الاجتماعية التي توكل إلى تلك الطبقات على ما رأينا .

ولقد ذكرنا أن التكريس يمارس في العادة على الشباب في سن الخامسة عشرة إلى العشرين ، وأن «مدة الطبقة» أي فترة البطولة وبالتالي المدة التي تمضي في سائر المراتب الاجتماعية ، تقدر هي أيضا بحوالي خمسة عشر عاما . وهذا معناه أن الفرد يتخلى عن وظيفة الحرب في حوالي الثلاثين من عمره ،

ثم يظل في مرتبة الرجولة الكاملة حتى الخامسة والأربعين تقريبا حين يحال إلى الشيخوخة التي يقضى فيها بقية حياته ، وإن كان يشغل مستوى جديدا في تلك المرتبة كل خمسة عشر عاما أي كلما تكوَّنت طبقة عمر جديدة. وقد رأينا عند الكبشجيس مثلا ثلاث طبقات تحت مرتبة الشيخوخة ولكل منها مستواها الخاص بالنسبة للطبقات الأخرى . بيد أن هذا هو النظام المثالي الصوري البحت الذي لا يمكن أن نأخذه بحرفيته وحذافيره ، ولكنه يكفي على أي حال لأن يعطينا فكرة تقريبية واضحة عن ميكانيزم النظام . فالواقع أن هناك اعتبارات كثيرة تتدخل في سير النظام بحيث تجعل من العبث محاولة وضع أي قاعدة حامية يمكن الزعم بأن نظام طبقات العمر يتبعها بدقة . فتكريس الفتيان يخضع لكثير من الاعتبارات الخاصة . فالفتى الفقير يكرم في العادة في سن عالية نسبيا (حوالي العشرين) لعدم قدرته على تقديم الماشية اللازمة لتلك الحفلات والتي تنحرف في مثل هذه المناسبات ، وذلك بعكس الحال فيما يتعلق بالفتى الأكثر ثراء وبخاصة إذا كان وحيد أبويه أو إذا مات أبوه وهو صغير ؛ إذ يسارعون في هذه الحالة بتكريسه في سن الثانية عشرة مثلا حتى يمكن له أن يحتل مركزه في المجتمع (١) . ومن ناحية أخرى كثيرا ما يستغرق التكريس فترة طويلة من الزمن قد تصل إلى بضعة أعوام ؛ وهذه الفترة لا تدخل ولا شك في الحساب ما دامت الطبقة لن تتمتع بكيان اجتماعي واضح متميز ولن ينظر إليها كوحدة متمايزة إلا بعد انتهاء التكريس بالفعل وبعد تقاعد طبقة المحاربين على ما ذكرنا . فكان هذه الأعوام الخمسة عشرة التي تذكرها معظم الكتابات التي بأيدينا هي الفترة المثالية التي يفرضها هؤلاء الكتاب تعسفيا لفهم ميكانيزم النظام وعمله .

(١) يذكر لنا فونزبروك أن الختان عند الماساي يتم عادة في سن ١٦ أو ١٧ على الأقل ، ولكن الفتى اليتيم يكرم في سن أقل من ذلك كثيرا أي حوالي العاشرة أو الثانية عشرة من العمر حتى يمكنه القيام بواجباته الاجتماعية ، وهذا معناه أن يلتحق في الأغلب بفوج أكثر تبكيرا من ذلك الذي كان يجب أن يكرم فيه ، وعلى العكس من ذلك تماما يذكر هوليس أن الفقراء واليتامى عند الماساي يكرسون في سن متأخرة وأقل من المتعاد . وقد تتدخل درجة النمو الجاهلي في تحديد الأعمار التي يكرم فيها الفتيان ، فيذكر هيندي مثلا أن الختان لا يجري عند الماساي =

كذلك مختلف عدد الطبقات التي يشمل عليها النظام باختلاف المجتمعات (١). فنظام الكبجيس والباندي مثلا يتألف من سبع طبقات تتابع في الظهور والاختفاء على فترات رتيبة معلومة ، وهذه الطبقات أسماء ثابتة لا تتغير . ولما كانت مدة كل طبقة منها خمسة عشر عاما فإن الأسماء كلها تظهر في بحر مائة وخمسة أعوام قبل أن تبدأ هذه الأسماء في الظهور من جديد على ما يبدو في الشكل التالي . ونظام طبقات العمر عند البوكوت الزراعيين يشمل على ثمانى طبقات متعاقبة وهكذا . ويعرف هذا النوع



من نظام الطبقات باسم الطراز الدائري cyclical type لأن عدد الطبقات فيه ثابت كما أن أسماءها ثابتة لا تتغير وتتتابع الطبقات في الظهور لإحداها بعد الأخرى كما تنتهي كل منها بموت أفرادها لتعود وتظهر مرة أخرى حين يكتمل ظهور الطبقات كلها . بيد أن هناك نوعا آخر من طبقات العمر

إلا على الغنيان الذين يلغون درجة من التمايز طبقا من عمل السلاح (الحرية والتفرع) ، بينما يؤجل تكريس ضماط البنية حتى يشتد ساعدهم . أنظر في ذلك :

Fosbrooke : *op. cit.*, p. 28; Hollis : *The Masat*, p. 262, n. I; Hinde : *op. cit.*, p. 40.

(١) بل إن الكتاب المختلفين كثيرا ، ما يختلفون على عدد الطبقات الموجودة في نفس النظام الواحد وفي نفس المجتمع . مثلاً ذلك أن بريستلي يذكر أن نظام الطبقات عند الكبجيس يشمل على سبع طبقات عمرية ، بينما يذكر بارفون أن عددهم ١٢ طبقة أو مرحلة على ما يسميها ، ويذكر دوبر Dobbs أن نظامهم يتألف من ١٣ طبقة . وقد يكون هذا التضارب واجعا إلى الخلط بين (طبقات العمر) والأنواع التي تتألف منها الطبقة الواحدة . والواقع أن مقارنة قوائم أسماء الطبقات والأنواع التي يعطينا إيها هؤلاء الكتاب الثلاثة تبين وقوع مثل هذا الخلط من جانب بارفون ودوبر . ولكن الجمال هنا لا يسمح بتسجيل كل تلك القوائم الطويلة .

يطلق عليه اسم الطراز الاطرادى أو التقدى linear or progressive ، ولا يشمل هذا النوع على عدد محدد بالذات من الطبقات كما أن الطبقات لا يكون لها أسماء ثابتة تتكرر ، وإنما تتخذ كل طبقة جديدة اسما جديدا لم يستخدم من قبل . والعادة أن يكون هذا الاسم مستمدا من إحدى خصائص الطبقة ذاتها أو قد يشير إلى أحد الأحداث التي وقعت أثناء تكوين الطبقة . وتتبع كل الشعوب الناطقة بلغة الثاندى (الكبسجيس . والثاندى والپوكوت والكيبو) وكذلك قبائل التبو والتويوتا هذا الطراز الدائرى مع اختلاف في عدد الطبقات . أما بقية الشعوب النيولوحامية فإن نظمها تتبع الطراز الاطرادى أو التقدى . ولعل الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قبيلة المانديارى التي رغم نظامها التقدى فإن أسماء طبقات الأجداد كثيرا ما تستخدم للأخاد ، وإن لم يكونوا يتبعون في ذلك نظاما محمدا ثابتا دقيقا كما هو الحال في الطراز الدائرى .

ويمتاز الطراز الدائرى من نظام طبقات العمر على الطراز الاطرادى بأنه يمكن التنبؤ فيه مقدما بالطبقة التي سوف يكرس الشخص فيها . فالانتهاى الى طبقة معينة من طبقات العمر يتوقف إلى حد كبير على وقت الولادة وكذلك على الطبقة التي ينتمى إليها الأب . فالابن لا يكرس في طبقة تالية لطبقة الأب ، وإنما لابد أن تفصل بينهما طبقة واحدة أو طبقتان تبعا لسن لسن الابن ، بمعنى أن الأبناء الأوائل يصبحون أعضاء في الطبقة الثانية بعد طبقة الأب ، بينما يكرس الأبناء الذين يولدون في وقت متأخر في الطبقة الثالثة . ولما كانت الطبقات في هذا الطراز الدائرى تحتفظ بمواضعها من الدائرة وينظام تعاقبها وبأسمائها ، فإنه يصبح من السهل معرفة اسم الطبقة التي سوف يلتحق الابن بها بمجرد ولادته . فإذا كان الابن ينتمى إلى الطبقة رقم ١ مثلا فإن أبنائه ينتمون إلى الطبقة رقم ٣ أو رقم ٤ بحسب ترتيب ولادتهم (١) .

(١) يذكر جليفر أن الرجل النى عند التوكانا يتزوج في العادة عددا كبيرا من النساء الصغيرات السن وعمل فترات متفاوتة وبذلك ينتج منهن عددا كبيرا من الأبناء الذين تفصل =

ولهذه النقطة الأخيرة بعض الأهمية من الناحية النظرية . ذلك أنه إذا كان التكريس يحدث عادة في سن الخامسة عشرة إلى العشرين وإذا كان الرجل يكرس في الطبقة الثانية أو الثالثة بعد تلك التي ينتمي إليها أبوه فإن هذا معناه أنه سوف ينتمي إلى الطبقة الرابعة أو السادسة بعد تلك التي ينتمي إليها جده . ولما كانت مدة الطبقة هي في العادة حوالي خمسة عشر عاما إلى عشرين عاما فإن الفترة التي تفصل بين طبقة الجذ وطبقة الحفيد تتراوح بذلك بين ٦٠ - ٨٠ سنة ، وهذا في حالة الأبناء الأوائل فقط ، لأن هذه الفترة تنبع في الأغلب في حالة الكلام عن الأحفاد الذين يولدون متأخرين من زيجات متأخرة . وعلى ذلك فإنه في الوقت الذي يبدأ فيه تكريس الأحفاد (في سن الخامسة عشرة أو العشرين) للدخول في طبقة عمر جديدة نجد أن أعمار الأجداد تتراوح بين الخامسة والسبعين والمائة (١٥ - ٢٠ + ٦٠ - ٨٠) أو أكثر من ذلك إذا قسنا الفترة بين الأجداد والأحفاد المتأخرين . وليس من المحتمل أن يعيش الرجل في تلك المناطق القاسية وتحت تلك الظروف المرهقة إلى مثل تلك السن العالية . وعلى ذلك فإنه يمكن القول إنه في الوقت الذي يكرس فيه الأحفاد لتكوين طبقة عمر جديدة لن يكون هناك - على أحسن الفروض - إلا أفراد قلائل من طبقة الأجداد ، ولن يكون هؤلاء الأفراد القلائل من الأحياء دور كبير واضح في الحياة الاجتماعية . أي أن طبقة الأجداد لن تكون فعالة أو ذات أثر محسوس في المجتمع . فالعبرة هنا بالوجود الاجتماعي وليس بالوجود الفيزيقي . وهذا معناه أنه في الوقت الذي تختفي فيه طبقة عمر الأجداد أو تتضاءل قيمتها وأهميتها الاجتماعية تظهر طبقة الأحفاد كوحدة اجتماعية فعالة في الحياة الاجتماعية . ويظهر ذلك بجلاء

حين أعمارهم فترات طويلة من الزمن ما يتيح لهم الالتحاق بعدد من الأنواع والانتفاء إلى طبقتين متباعدتين وليس إلى طبقة واحدة . أي أن البعد الاجتماعي بين طبقة لرجل وطبقة أبنائه المتنازل من زيجاته الأكثر حداثة تكون أوسع وأكبر مما تسمح به القاعدة العامة . راجع :

Gulliver : *Survey*, p. 130; Peristiany : *The Kipsigis*, p. 7; Stigand : *op. cit.*

في المجتمعات التي يتألف نظام طبقات العمر فيها من طبقتين فقط تنظم كل طبقة منهما جميع أفراد الجيل الواحد كما هو الحال عند البوكوت الرعاة ، وكذلك في نظم طبقات العمر الاطرادية أو التقدمية . فعند البوكوت الرعاة مثلا نجد أن طبقة العمر (التي تعرف باسم sapana) تنظم في الواقع جميع أفراد الجيل الواحد . والمجتمع لا يعترف بها رسميا إلا بعد اختفاء طبقة الأجداد عن طريق موت أعضاء هذه الطبقة أو موت معظمهم على الأقل ، ثم تأخذ هذه الطبقة الجديدة اسم الطبقة التي اندثرت . وهكذا الحال في كثير من المجتمعات الاطرادية حيث تطلق على طبقة الأحفاد اسم طبقة الأجداد ، ولا يكون ذلك إلا بعد اختفاء هذه الطبقة الأخيرة من مسرح المجتمع ، أي أن طبقة الأحفاد وطبقة الأجداد ، وهما تحملان نفس الاسم ، لا يمكن أن توجدا كوحدين متماسكين معا في نفس الوقت . وما يؤسف له حقا أنه ليست لدينا معلومات كافية تسمح لنا بفحص هذه النقطة فحوصا دقيقا عند كل الشعوب التي تعرف نظام طبقات العمر ، خاصة وأن بعض هذه النظم لم يعد يتبع الآن أي مبدأ زمني ثابت وإنما تتكون طبقة العمر كلما وجد هناك عدد كاف من الفتيان الصالحين ، وإن كانت هذه القاعدة تصدق لدى كل الشعوب التي تتبع مبدأ زمنيا دقيقا في تكوين طبقاتها كما هو الحال عند الكيمجيس والناندي والماساي ؛ فهي كلها تتفق في عدم احتمال وجود طبقتي عمر الأجداد والأحفاد معا وظهورهما كوحدين اجتماعيين وظيفيين . وقد تكون هذه النقطة علاقة بالاعتقاد المائد في كثير من المجتمعات من أن الأحفاد يعتبرون بديلا من الأجداد ولذا يسمون بأسمائهم حتى يحتفظ المجتمع بكيانه عن طريق تجديد الأجيال . ولكن هذا موضوع آخر ليس هنا مجال مناقشته .

والخلاصة من هذا كله هو أن نظام طبقات العمر الذي يتوزع أعضاء المجتمع بمقتضاه في طبقات متمايزة بحسب السن يتيح لكل فرد في المجتمع المشاركة في وظائف الحياة الاجتماعية الكبرى حسب نظام محكم دقيق في حياته وتبعاً لقدراتهم الجثمانية وكفايتهم الذهنية، وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم في السن ؛ كما يتيح لكل فرد أيضا الانتقال - ضمن

جماعة متهاسكة من الزملاء والقرناء - والترقى في مختلف المراتب الاجتماعية تبعاً لتوقيت مرسوم معلوم ، وذلك إذا تعاضينا عن بعض الاختلافات والفوارق الزمنية الطفيفة التي تجد مبيهاً إلى ذلك النظام نتيجة للعوامل التي سبق ذكرها . وهذا ينقلنا إلى الحديث عن وظيفة النظام في تلك المجتمعات .

٥

دراسة وظيفة أي نظام من النظم الاجتماعية معناها ببساطة واختصار معرفة معنى هذا النظام والدور الذي يؤديه في البناء الاجتماعي كله . وعلى ذلك فلنكتفهم وظيفة نظام طبقات العمر في المجتمعات النيوليتية سوف نحتاج إلى أن نتذكر دائماً أهم الملامح البنائية التي تميز هذه المجتمعات من أنها مجتمعات انقسامية يقوم بناؤها الاجتماعي على أساس الانقسامات الإقليمية المتعددة ، ولا تلعب العشائر أو البدنات فيها دوراً سياسياً واضحاً نظراً لانتشار أفرادها وتبعثرهم في جميع أنحاء أرض القبيلة كما ينقصها وجود أي جهاز إداري تنفيذي فعال .

ولعل أول ما يتضح للأذهان مما قلناه في الأجزاء السابقة من هذه الدراسة هو أن نظام طبقات العمر هو طريقة ينقسم بها المجتمع إلى عدد من الطبقات التي تقوم على أساس التقارب في العمر والتي يحتل كل منها مكاناً معلوماً في السلم الاجتماعي ، أي أن النظام يعمل في تلك المجتمعات كبداً للتمايز أو للتفاضل الاجتماعي social differentiation بمقتضاه يتوزع سكان المجتمع الواحد من الذكور بين عدد معين من المستويات و المراتب الاجتماعية بحيث تعتبر كل فئة منهم وحدة مستقلة ومتميزة عن غيرها من الوحدات ، وتلك في نفس الوقت إزاء تلك الوحدات الأخرى سلوكاً معيناً عليه عليها مركزها في ذلك السلم الاجتماعي أي أن سلوكها يكون محكوماً بمبدأ التفاوت الاجتماعي المبني على التفاوت في العمر . وهذا صحيح في جملة ولا ريب . فقد رأينا أن طبقات العمر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمراحل للعمر وتوزع بينها وأن كل طبقة منها تقف تبعاً لذلك في مركز أعلى وأسفل من كل الطبقات التي تكونت بعدها في الزمن ، كما تعتبر نفسها في الوقت ذاته

أقل وأدنى منزلة من كل الطبقات التي سبقها في التكوين والظهور. وهذا معناه أن كل طبقة تحتل مركزاً ثانوياً ليس فقط بالنسبة لتلك الطبقات التي تحتل مراحل العمر العليا، بل وأيضاً الطبقات التي تشغل المستويات الأعلى من نفس مرحلة العمر، وتكون بذلك مطالبة بالخضوع وإبداء الاحترام لها، بينما هي تمارس شيئاً من النفوذ والسيطرة وتبدي نوعاً من السيادة ومن التعالي على الطبقات التي تليها. فالتوزيع الطبقي على أساس العمر ينظم إذن سلوك الطبقات إزاء بعضها بعضاً. والواقع أن الشبان يتلقون أثناء حفلات تكريمهم بعض الدروس والتوجيهات المتعلقة بنوع السلوك الذي يجب أن يصدر عنهم إزاء الطبقات التي تعلو الطبقة التي سوف ينتمون إليها، وكذلك إزاء الطبقات التي سوف تأتي دون طبقتهم في المنزلة. كذلك يرتبط هذا التوزيع الطبقي القائم على مبدأ العمر ارتباطاً وثيقاً بمسألة توزيع الوظائف المختلفة في المجتمع؛ أي أن هناك علاقة قوية بين التماثل في طبقات العمر والتفاضل في الوظيفة (١).

فالوظائف الاجتماعية المختلفة، من حربية وقضائية وشعبانية... توزع هناك في الواقع على أساس طبقة العمر وليس على أساس أي زمرة اجتماعية أخرى كالعشيرة أو البدنة أو العائلة مثلاً، بمعنى أننا لن نجد عائلة أو عشيرة معينة تتركز فيها أي وظيفة من هذه الوظائف ويتوارثها أبناؤها جيلاً من جيل. وإنما تقوم الطبقة المكونة من أفراد ينتمون إلى جميع العائلات والبدنات والعشائر بتلك الوظيفة في فترات معينة من حياتها تتوقف على مكان الطبقة في النظام كله وعلى مرحلة العمر التي يمر بها أفراد هذه الطبقة. فالطبقة الواحدة تقوم بالوظيفة الحربية بمجرد تكوينها وإدخالها إلى مرتبة البطولة؛ ثم تقوم بالوظيفة القضائية بعد تقاعدها وتنازلها عن الوظيفة الحربية وهكذا. وهذا معناه أيضاً أن كل طبقة تتمتع في النظام كله بنوع معين من (السلطة)، كما يكون لها امتيازاتها وحقوقها وواجباتها الخاصة التي تنفق وتتماشى مع المركز الاجتماعي الذي تشغله والمرتبة التي تحتلها.

(١) Bernardi : *op. cit*; Africa, XXII, p. 322.

وما يؤسف له حقا أن مسألة توزيع السلطات والوظائف لم تدرس
 دراسة وافية حتى الآن في أي من المجتمعات التي نعرض لها هنا بالدراسة ،
 وذلك إذا استثنينا مسألة ارتباط طبقة الأبطال بالوظيفة الحربية . والواقع
 أن معظم الكتاب الذين درسوا نظام طبقات العمر ينظرون إليه على أنه نظام
 حربي في الأصل ، وظيفته الرئيسية هي تزويد المجتمع بالمحاربين . وقد يكون
 لهذه النظرة ما يبررها ؛ فقد رأينا أن التكريس عند الشعوب النيولوحامية
 يهدف إلى إدخال الفتیان إلى مرتبة البطولة التي ترتبط بالحروب والإغارات ؛
 كما أنه من الملاحظ أن النظام كله بدأ يتهدم تحت الحكم الاستعماري الأوروبي
 وبعد أن منعت الحروب والإغارات بين القبائل مما لم يعد معه ثمة جدوى
 أو فائدة من قيام نظام طبقات العمر . وقد يستدل من ذلك على أن النظام
 كان يخدم في الأصل غايات حربية وعسكرية . إنما يوجد إلى جانب ذلك
 شيء من التلازم والترابط بين طبقات العمر وبقية مظاهر النشاط الاجتماعي
 الأخرى لم تكف الكتابات التي بأيدينا تعرض لها بالتفصيل . فالوظيفة القضائية
 والوظيفة الشعائرية وممارسة الطقوس الدينية والسحرية والإشراف على الحياة
 الاقتصادية وتوجيهها لم تكن كلها من واجبات طبقة المحاربين الأبطال ،
 وإنما هي تنحصر دائما في طبقات الشيوخ أو الطبقات التي تعزل البطولة
 والحرب ؛ وإن كنا لا نستطيع من المعلومات التي تحت أيدينا أن نزعم
 أن طبقة معينة بالذات من هذه الطبقات المتقاعدة تحكر لنفسها الوظيفة
 القضائية مثلا كما يحكر الأبطال الوظيفة الحربية ، وإن كنا نستطيع القول
 إن الطبقات المتقاعدة تشارك كلها في القيام بالواجبات القضائية والاقتصادية
 وتشارك في مجالس الأقاليم ، بينما يمارس أكبر الشيوخ منا مسائل السحر
 والدين وما إليها باعتبارهم أقرب الأحياء إلى الآلهة على ما ذكرنا من قبل .
 فالارتباط بين طبقات العمر ومختلف أنواع النشاط الاجتماعي ليس واضحا
 — رغم وجوده — إلا في حالة طبقة المحاربين والحرب . والواقع أن طبقة
 العمر تفقد كثيرا جدا من تماسكها واتساقها وتضامها بعد التقاعد والركون
 إلى الحياة المدنية الحاملة المسالمة . أضف إلى ذلك أنه ليس من المعقول
 أن تمارس الطبقة كلها كوحدة الوظيفة القضائية أو الشعائرية على ما نرى

في سعادة المحلوسين والحرب ، إذ يتدخل هنا للعامل الشخصي الذي يميز
أفراداً على غيرهم ويؤهلهم من دونهم للقيام بهذه الوظائف والسلطات (١) .

والذي يهتأ من هذا كله هو أنه بمقتضى ذلك النظام يتوزع السكان
إلى وحدات عمرية محددة تحتفظ كل وحدة منها باستقلالها وتميزها
عن الطبقات الأخرى . فأفراد كل طبقة من هذه الطبقات يعتبرون أنفسهم
متساوين في المركز وفي العمر الاجتماعي على السواء ، ويرتبطون بعضهم
ببعض بروابط قوية قوامها وحدة الشعور والنشاط المشترك والتعاون في الحياة
اليومية والتساوي في الحقوق والامتيازات والواجبات . وينعكس هذا التماسك
والتمايز في عدد من المظاهر الخارجية . فلكل طبقة أولاً اسم خاص بها يلازم
أفراد الطبقة طيلة حياتهم وينقل معهم في انتقالهم خلال المراتب الاجتماعية
المختلفة ، كما يلعب في الحياة اليومية دوراً أهم بكثير من اسم العشيرة
أو البدنة ، وذلك نظراً لدرجة التماسك القوي الذي يخلق هذا الاسم بين جميع
أفراد الطبقة المنتشرين في كل أقسام أرض القبيلة . ويتمثل هذا التمايز والتماسك
ثانياً في وجود متدي أو عدد من المتديات الخاصة بكل طبقة بحيث لا يسمح
بالدخول فيها لغير أفراد تلك الطبقة ، وإن كانت هناك بعض مجتمعات
لا تعرف نظام المتديات . والأصل في هذه المتديات أنها تقام للأبطال
المحاربين ليلتقوا فيها أثناء « مدة الطبقة » وقبل تقاعدهم وانصرافهم إلى شئون
الحياة المدنية . ويقام المتدي في العادة على أساس أصغر الوحدات الإقليمية ،
أي على أساس وحدات الدرجة الثالثة ؛ ولكن قانون الطبقة يعطي لكل عضو
من أعضائها الحق في النزول في كل متديات طبقته التي تنتشر في جميع أنحاء القبيلة ،
وهناك يجد من (إخوانه) في الطبقة كل عون وإكرام حتى وإن لم يكن ثمة
تعارف سابق بينهم . ولكن الشخص لا يقطع علاقته بهذه المتديات
بعد التقاعد بل يزورها من حين لآخر وينزل بها أثناء رحلاته ونجواله (٢) .

Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 216—17; Gulliver : *Survey*, p. 132. (١)

Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 40—1; Leakey : *op. cit.*; J. R. A. J., LX, p. 195; (٢)

Hollis : *The Masai*, p. 77.

والمظهر الثالث من مظاهر تماسك الطبقة هو تعاون أفرادها وبخاصة في أوقات الشدة وفي أثناء الأزمات والمجاعات . هذا بالإضافة إلى ما يفرض عليهم من قواعد حسن الضيافة لأفراد طبقتهم ومعاونتهم لهم في أعمالهم العادية اليومية . والواقع أن التكريس ذاته يوجد بين أفراد الطبقة الواحدة - وبخاصة بين هؤلاء الذين كرسوا معا في نفس الحقل - نوعا من العلاقات والروابط القوية المثبتة التي قد يبلغ من قوتها ومثابرتها أن تعتبر مماثلة لروابط القرابة الدموية . فأفراد الطبقة يشعرون كأن بينهم شيئا من الأخوة الروحية ، بل إنهم يستعملون بالفعل كلمة (أخ) في الإشارة أحدهم للآخر ، كما يحرم عليهم الزواج من بنات (إخوانهم) في الطبقة لأنهن يعتبرن بنات لهم أو الزواج منهن يكون على هذا الأساس أقرب إلى الزنى بالتحارم incest . من أجل ذلك كنا نجد أنه حين يرتكب أحدهم جريمة ويحكم عليه بالفراثة مثلا فإن جميع أفراد طبقته يساهمون في دفعها كما يشاركون في دفع اللدية حين يرتكب أحدهم جريمة للقتل ؛ بل إن أفراد الطبقة كثيرا ما يساهمون في دفع (ثمن العروس) أو المهر حين يتزوج أحدهم كما يحدث عند قبائل البياري مثلا (1) . ويظهر هذا التعاون حتى في المجتمعات والقبائل الرعوية التي لا يكاد أفراد الطبقة الواحدة فيها يجتمعون معا إلا في القليل النادر . وليست قواعد الضيافة والتعاون المتبادل والتساند بين أفراد الطبقة مجرد الترامات تعاقدية يدخلها الفرد حرا مختارا ويخرج منها حين يشاء أو أنها تنتهي بتعبئة ما يتعاقد أعضاء الطبقة عليه ، إنما هي في الحقيقة التزامات اجتماعية تُفرض على الطبقة قرضا ولا سبيل إلى التحرر منها ، ولا تسقط عنهم على الإطلاق .

ولكن على الرغم من أن أعضاء طبقة العمر الواحدة يعتبرون أنفسهم متساوين ويُنظر إليهم من خارج على هذا الأساس ، فإن الشعور بالقرب الاجتماعي لا يكون على نفس الدرجة من القوة بين الأشخاص الذين ينتمون إلى مختلف الأفواج والأرهاط ؛ وإنما يكون أقوى بين أفراد الرهط الواحد ،

Seligman : *Peagan Tribes*, p. 263; Gulliver : *Survey*, pp. 137-8; Peristiany : (1)
The Kipsigis, p. 39.

أى بين الأشخاص الذين يكرسون معا ، عنه بين أعضاء الأرهاط المختلفة للذين ينتمون إلى نفس الفوج ، كما أنه يكون أشد وأقوى بين أعضاء الفوج الواحد (بكل أرهاطه) عنه بين أعضاء الأفواج المختلفة في الطبقة الواحدة .

أى أن التفاصل الاجتماعى القائم على أساس العمر لا يوجد بين الطبقات فحسب وإنما تمتد جلوره إلى داخل الطبقة ذاتها نتيجة لانتها أفرادها إلى أرهاط وأفواج مختلفة بحسب ترتيبهم وأولويتهم في التكريس . ويراعى هذا التفاوت الطبقي في الاجتماعات العامة والختلات الشعائرية التي يمثل المجتمع فيها بكل طبقاته . فالعادة في مثل هذه الختلات العامة أن أعضاء المجتمع يجتمعون في شكل نصف دائرة بحيث يجلس أفراد طبقة العمر العليا أولا ويجلس بقية الطبقات إلى يسارها حسب منزلتها الاجتماعية . وفي كل طبقة يجلس أفراد الفوج الأعلى - أى الذى تكون أولا - إلى اليمين ثم ترتب الأفواج الأخرى إلى يساره حسب منزلتها أيضا ، وكذلك الحال في أرهاط الفوج الواحد . بل إن الأمر قد يصل إلى أبعد من ذلك في بعض القبائل ، إذ نجد نفس التفاوت قائما حتى بين أفراد الرهط الواحد ، لأن الأسبقية في التكريس تكسب صاحبها مكانة ممتازة على أقرانه في نفس الرهط ، ولن يستطيع الشخص أن يحتل في الرهط - وبالتالي في الطبقة العمرية كلها - مستوى أعلى من ذلك الذى اكتسبه وقت التكريس إلا بموت الأشخاص الذين يشغلون ذلك المستوى الأعلى ، أى أن الشخص لا يمكنه محال أن يحتل في الحياة الاجتماعية مكانة أكثر امتيازاً من تلك التي يشتمع بها أى شخص آخر سبقه في التكريس (١) .

وقد يدفع هذا القول إلى الظن بأن هذه الطبقات العمرية المتمايزة تقسم المجتمع أقساما مغلقة على ذاتها تماما بشكل تنعدم معه كل الروابط والعلاقات الاجتماعية في الحياة اليومية . ولكن هذا غير صحيح . فرغم ما تبديه الطبقة العمرية من تماسك وتضامن ، ورغم ما يقوم بين الطبقات من تفاوت

Peristiany : "The Age-Set System of the Pastoral Pokot", *Africa*, XXI, (١)
p. 285; Gulliver's Survey, p. 129.

في الوظيفة وتفاضل في المركز الاجتماعي فإن هناك علاقات قوية من الاعتماد المتبادل والتساند والتعاون تربط هذه الطبقات إحداها بالأخرى رغم ما يقوم بينها من ذلك التباعد الاجتماعي الذي تكلمنا عنه .

وتظهر هذه العلاقات بأجلى مظاهرها في موقفين هامين من مواقف الحياة الاجتماعية في تلك القبائل ، الموقف الأول هو حالة التكريس لتكوين طبقات جديدة ، والموقف الثاني هو حالة الحرب الدفاعية . فأما فيما يتعلق بالموقف الأول فإننا ذكرنا أن تكوين الطبقة الجديدة التي سوف تحتل مرتبة البطولة لا يتم إلا بموافقة طبقة الشيوخ ، أو أعلى طبقة من طبقات الشيوخ في حالة تعدد هذه الطبقات في المجتمع ، وأن الفتيان أنفسهم هم الذين يلجأون إلى شيوخ العشيرة طالبين إليهم الإذن بالتكريس . ويخضع الفتيان أثناء شعائر التكريس ذاتها وفي خلال المدة التي تستغرقها تلك الشعائر لنوع من الإشراف يقوم به أفراد الطبقة التي ينتسب إليها آباؤهم ، كما أنهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التي تتعلق بنوع السلوك المتظر منهم بعد التكريس ، وتتعاون طبقات الشيوخ كلها في هذه المهمة التربوية . وبذلك نجد أن طبقات الآباء والأجداد تتعاون كلها إذن بشكل أو بآخر في تكوين الطبقة الناشئة وإعدادها وتأهيلها للحياة الاجتماعية الجديدة . وأما فيما يتعلق بالحرب ، فقد رأينا أن الحرب الدفاعية تتطلب اشتراك كل طبقات المجتمع العمري وللحدود عن أرض القبيلة بغض النظر عن وظائف هذه الطبقات في الحياة العادية . بل إننا نجد أنه في حالة الحروب الهجومية أو الإغارات التي هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لا يمكن لهذه الطبقة شن اغاراتهم إلا بعد استدعاء شيوخ العشيرة وتلقي بركاتهم ودعواتهم التي تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الإغارة أو الحملة . والواقع أن الانتصار في الحرب ونجاح الحملة أو فشلها هو مسؤولية الرؤساء الشعائريين أو السحرة ورجال الدين قبل كل شيء . فرجال السحر والدين هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها . ويذكر لنا فوزبروك أن الماساي قتلوا أحد كبار رجالهم الشعائريين حين فشلت

إحدى حملات طبقة المحاربين بعد أن كان ثبأً بنجاحها (١) . ومن ذلك نرى أن أحداث الحياة الكبرى تحتاج إلى تماسك الطبقات العمرية المختلفة وتأثرها رغم ما بينها من اختلاف وتفاوت .

ولكن هذا ليس كل شيء . فلنظام وظيفية أخرى أبعاد أثرها من ذلك بكثير فيما يتعلق بالتماسك الاجتماعي . فنحن نذكر مثلا أن التكريس ، وبالتالي تكوين الأرهاط ، يتم في الأغلب على أساس أصغر الوحدات الإقليمية أي أقليم الدرجة الثالثة . وأن هذه الأرهاط المختلفة لا تلبث أن تندمج كلها لتكون أفواجا ثم طبقة واحدة بعد ذلك لما أمم واحد يصدق على كل أفراد الطبقة دون اعتبار للأرهاط أو الأفواج . لو حتى الوحدات الإقليمية السياسية التي ينتمون إليها . أي أن حدود الطبقة الواحدة تتعدى الحدود السياسية الإقليمية نظرا لأن أفراد الطبقة الواحدة يكونون منشرين في كل أنحاء أرض القبيلة ، ونظرا لأن قوانين الطبقة التي تحتم قيام التعاون بين أفرادها وبذل العون والمساعدة وحسن الضيافة تصدق على الجميع ، ونظرا أيضا لأن أفراد الطبقة جميعا يخضعون لنفس قواعد السلوك فيما يتعلق بمعاملاتهم بعضهم لبعض أو بمعاملاتهم مع الطبقات الأخرى . فكأن طبقة العمر يمكن اعتبارها إذن عاملا من عوامل الجذب ، يجذب الوحدات الإقليمية المستقلة سياسيا إحداها إلى الأخرى ويوجد بينها نوعا من التماسك والتضامن القائم على تعاون أفراد الطبقة . أي أن طبقة العمر ، وبالتالي النظام كله يمكن اعتباره مبدأ من مبادئ التماسك الاجتماعي هناك .

كذلك نحن نتذكر ما سبق أن قلناه من عدم تمركز العشيرة أو توطنها في إقليم واحد بالذات وانتشار أفرادها وتوزعهم في كل الأقسام الإقليمية مما يضعف من قيمة العشيرة والبلدان من الناحية السياسية ويقصر وظيفتها على تنظيم الزواج حسب قواعد الإكسوجامية والطوطمية، ويجعل علاقات الجوار أهم بكثير من روابط القرابة . ولما كانت طبقة العمر تنظم أفرادا

Fosbrooke : *op. cit.*, pp. 15—16. (١)

ينتمون إلى كل الوحدات الإقليمية على أساس التقارب العمري وحده ،
 ولما كانت العشرة الواحدة تنتشر في كل الوحدات الإقليمية فإنه يمكن
 القول إن نظام طبقات العمر يقطع حدود العشرة ويتعداها ، أى أنه يعيد
 تقسيم أفراد العشرة الواحدة على أساس جديد (عامل السن) مختلف تمام
 الاختلاف عن الأساس القرابي (أى الانحدار من جد واحد) الذي تنقسم
 العشرة بمقتضاه إلى بدنات وعائلات ، بحيث نجد في النهاية أن الطبقة الواحدة
 تتألف من عدد من الأفراد ينتمون إلى مختلف البدنات المكونة للعشرة
 الواحدة ، بل وأيضا مختلف العشائر المنتشرة في أرض القبيلة . أضف
 إلى ذلك أن تكوين طبقة العمر معناه في الحقيقة التحاق الفرد بجماعة أكبر
 وأوسع عن الجماعة التي ولد فيها (أى العائلة) أو التي ينتمى إليها عن طريق
 انحدره من جد معين (أى البدنة والعشيرة) ، كما يعنى توسيع دائرة معارفه
 ودائرة نشاطه الاجتماعى ما دام أصبح عضوا في جماعة أكبر من الجماعات
 التي تقوم على مجرد روابط القرابة . ومن هذه الزاوية أيضا يعتبر نظام
 طبقات العمر مبدأ من مبادئ التماسك الاجتماعى نظرا لتعديه كل حدود

	د	ج	ب	ا
١				
٢				
٣				
٤				

ا، ب... وحدات إقليمية
 ١، ٢... طبقات عمر أو عشائر

القرابة وقبورها . وهكذا نجد أن هذا النظام يقرب بين الأفراد الذين تباعد
 بينهم الحدود الإقليمية والسياسية من ناحية. والروابط القرابية الضيقة من ناحية
 أخرى على ما يظهر في الشكل التالى . أى أنه يخفف من حدة المبدأ الانقسامى
 الذى ينقسم المجتمع بمقتضاه إلى وحدات سياسية متبايزة ومستقلة تمام الاستقلال
 يحداها عن الأخرى ويؤدى بذلك إلى ترابط المجتمع كله . ومن هنا يمكن

اعتبار نظام طبقات العمر عاملا من أهم عوامل التماسك والتضامن الاجتماعي في تلك المجتمعات الانقسامية إن لم يكن هو العامل الوحيد . بل الأكثر من ذلك أن طبقة العمر قد تتعدى الحدود القبلية ذاتها كما هو الحال عند الشعوب الناطقة بلغة الناندي ، أو بقول أدق ، عند الناندي والكيسجيس الذين يوجد عندهم نفس العدد من طبقات العمر بنفس الأسماء على ما ذكرنا . وعلى ذلك فإن الرجل من الكيسجيس يمكنه أن يكرس عند الناندي والعكس بالعكس ، أي أن الرجل الذي ينتمي الى طبقة عمر معينة عند إحدى القبيلتين يمكنه أن ينضم بسهولة بطبقة العمر الموازية عند القبيلة الأخرى . ولكننا لا نعرف إن كان هذا يصدق أيضا على قبلي الكيبو والپوكوت اللتين نتميان إلى نفس المجموعة من الشعوب واللتين لهما نفس النظام ونفس الأسماء ، وإن كان نظام الپوكوت يزيد طبقة على عدد الطبقات الموجودة في بقية شعوب المجموعة . ولكن لو صح ذلك لكان النظام عاملا للتماسك الاجتماعي الحق ، ليس فقط في كل مجتمع على حدة ، بل وأبضا في كل المجموعة الناندية .

٦

ونستطيع أن نجمل كل ما قلناه في هذه الدراسة في النقاط التالية :

١ - كان هدفنا من هذا البحث هو معرفة مدى صلاحية نظام طبقات العمر لأن يكون عاملا من عوامل التماسك أو التضامن الاجتماعي في المجتمعات الانقسامية البسيطة التكوين التي لا تؤلف دولة . وقد دعانا ذلك إلى وصف البناء الإقليمي السياسي لعدد من تلك المجتمعات التي تفتقر إلى وجود أي تنظيم حكومي واضح أو أية سلطة مركزية فعالة . وقد أمكن التمييز في هذه المجتمعات الانقسامية بين فئتين : الفئة الأولى تشمل الپوكوت الزراعيين وقبائل المانداري والبورونجا التي يؤدي نظام البدنات الانقسامية عندهم وظيفة سياسية واضحة ، والفئة الثانية تشمل بقية المجتمعات النيولوجامية التي لا تلعب العشيرة أو أقسامها أي دور سياسي فيها . وقد رأينا أن نظام طبقات العمر هو النظام الاجتماعي الوحيد الذي يتخطى كل حدود

هذه الأقسام الإقليمية والقراية وبذلك يربط أقسام المجتمع وشعبه بعضها ببعض - على الأقل في مجتمعات الفئة الثانية - رغم أنه هو نفسه مبدأ للاتقسام الاجتماعي على أساس السن .

٢ - وقد أشرنا إلى تقصير معظم الكتاب والعلماء الذين درسوا نظام طبقات العمر في تبيين المهمة التي يقوم بها هذا النظام لتكامل المجتمع وتماسكه وترابطه ، وأن معظمهم هؤلاء الكتاب كان متصرفا إلى توكيد وظيفته الانقسامية . كذلك يلاحظ أن هؤلاء الكتاب قصروا تقصيرا شديدا في تبيين العلاقة بين هذا النظام وبقية النظم الاجتماعية التي تؤلف كلها البنية الاجتماعية لتلك المجتمعات . ولقد رأينا أن كل طبقة من هذه الطبقات وبالتالي كل عضو في المجتمع يحتل مكانة معينة خاصة في بناء النظام كله بالنسبة للطبقات الأخرى وبالنسبة لأفراد المجتمع الآخرين ، وهذا معناه أن المركز الاجتماعي والسلطة في هذه المجتمعات - أو على الأقل في مجتمعات الفئة الثانية - يقومان على أساس السن وليس على أساس أي من الزمر الاجتماعية الأخرى كالمثيرة أو البدنة . أي أن النظام يعمل في تلك المجتمعات كبدأ لتنظيم كل أنواع النشاط الجماعي ، ويستوى في ذلك النشاط الحربي أو القضائي أو الشعائري .

٣ - يذهب معظم الكتاب إلى أن الغاية الأساسية من نظام طبقات العمر هي غاية حربية وأن وظيفته هي تزويد المجتمع بطبقة من المحاربين الأبطال . وليس ثمة شك في أن النظام يخدم هذه الغاية في بعض المجتمعات . ولكن من الخطأ ومن الخطر أيضا أن نزعّم أن النظام - أي نظام - وظيفة واحدة اجتماعية ثم نعتبرها هي أهم الوظائف ، خاصة إذا كانت هذه الوظيفة وظيفة جزئية نسبيا مثل تزويد المجتمع بالمحاربين الأبطال . فبعض نظم طبقات العمر ليس لها أي مظهر عسكري أو حربي كما هو الحال في مجموعة الشعوب الناطقة بلغة الباري . ومع ذلك فإن من الخطأ أيضا أن نحاول التقليل من أهمية الوظيفة الحربية للنظام وبخاصة في الماضي . فقد رأينا أن طبقة العمر لا تصرف

ولا تسلك كوحدة متماسكة متعاونة إلا أثناء ما أسمىناه « مدة الطبقة » أى فترة البطولة ، وأن هذا التماسك يضعف ويقل بعض الشيء بين أفراد الطبقة بعد تقاعدهم وانصرافهم إلى الحياة المدنية .

٤ - وأخيرا فإن نظام طبقات العمر لا يبدو أنه يلعب دورا جوهريا فى البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات التى تتمتع بوجود نظام انقسمى للبلدان تكون له وظيفة ميسامية واضحة كما هو الحال عند الماندارى مثلا أو عند البورونجا . فطبقة العمر عند الماندارى تتكون على أساس أصغر الأقاليم السياسية أى أقاليم الدرجة الثالثة وبذلك لا تتخطى الطبقة الحدود الإقليمية السياسية بحال ؛ كما أنه ليست لهذا النظام أى علاقة مباشرة بالوظيفة الحرة عند البورونجا حيث تقوم الجماعة القرابية كلها بالحرب دون أى اعتبار لعامل السن . ثم إن البلدة وأقسامها هى التى تقوم بتنظيم العلاقات السياسية بين مختلف الأقسام والأقاليم على النحو الذى نجده عند النوير ، كما أن المركز الاجتماعى يرتبط فى هذه المجموعة من الشعوب وعند اليوكوت الزراعيين أيضا بالانتماء إلى بدنة معينة بالذات فى كل إقليم على حدة ولا تتوزع السلطة بحسب السن كما هو الحال فى مجتمعات الفئة الثانية كالكبجيس والناندى والماساى . فكأنه فى المجتمعات التى لا تتمتع بوجود ذلك النمط الانقسمى من نظام البلدات الذى يقوم بتنظيم العلاقات السياسية بين الوحدات الإقليمية يكون نظام طبقات العمر (وبالتالى التفاوت الاجتماعى على أساس السن) هو العامل الأساسى فى المحافظة على كيان المجتمع واستمراره فى الوجود .

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

مراجع البحث

- Baumann, H. and Westermann, D : *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, 1948.
- Beech, M. W. H : *The Suk; Their Language and Folklore*, London, 1911.
- Bernardi, B : "The Age-System of the Nilo-Hamitic Peoples", *Africa*, XXII, 1952.
- Bruyen, M. A. and Tucker, A. N : *Distribution of Nilotic and Nilo-Hamitic Languages of Africa*. London, 1948.
- Clarke, D : "Karamojong Age-Groups and Clans", *Ug. J.*, XIV, 1950.
- Driberg, J. H : "A Note on the Classification of Half-Hamites in East-Africa", *MAN*, XXXIX, 1939, No. 19.
- : "Age-Grades", *Encyclopaedia Britannica*, I.
- Evans-Pritchard, E. E : "The Nuer Age-Sets"; *S. N. R.*, XIX, 1936.
- : "The Political Structure of the Nandi-Speaking Peoples of Kenya"; *Africa*, XIII, 1940.
- Fosbrooke, H. A : "An Administrative Survey of the Masai Social System", *T. N. R.*, No. 26, Dec. 1948.
- Gulliver, P. H : *A Preliminary Survey of the Turkana*, University of Cape Town, 1951.
- : "The Karamojong Cluster", *Africa*, XXII, 1952.
- Hinde, S. L. and H : *The Last of the Masai*, London, 1901.
- Holls, C : *The Masai : Their Language and Folklore*, London, 1905.
- Huntingford, G. W. B : *Nandi Work and Culture*, London, 1950.
- Leakey, L. S. B : "Some Notes on the Masai of Kenya Colony", *J. R. A. I.*, LX, 1930.
- Nalder, L. K. (ed) : *A Tribal Survey of Mongalla Province*, London, 1937.
- Peristiany, S. G : *The Social Institutions of the Kipsigis*, London, 1939.
- : "The Age-Set System of the Pastoral Pokot", *Africa*, XXI, 1951.
- Seligman, C. G : *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan*, London, 1932.
- Stigand, C. H : *The Land of Zinj*, London, 1913.

Page 10

1. The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that proper record-keeping is essential for the integrity of the financial system and for the ability to detect and prevent fraud.

2. The second part of the document outlines the specific procedures for recording transactions. It details the steps involved in the accounting cycle, from identifying the transaction to posting it to the appropriate ledger account.

3. The third part of the document discusses the importance of reconciling accounts. It explains how regular reconciliations help to ensure that the records are accurate and that any discrepancies are identified and corrected promptly.

4. The fourth part of the document discusses the importance of maintaining proper documentation. It emphasizes that all transactions should be supported by appropriate evidence, such as invoices, receipts, and contracts.

5. The fifth part of the document discusses the importance of maintaining proper internal controls. It explains how internal controls help to prevent errors and fraud, and how they can be designed to be effective and efficient.

6. The sixth part of the document discusses the importance of maintaining proper communication. It emphasizes that all parties involved in the financial process should be kept informed of their responsibilities and the progress of the work.

7. The seventh part of the document discusses the importance of maintaining proper security. It explains how security measures help to protect the financial records from theft, loss, and damage.

8. The eighth part of the document discusses the importance of maintaining proper compliance. It emphasizes that all financial activities must be conducted in accordance with applicable laws and regulations.

تقرير

عن مؤتمر طشقند للكتاب الآسيويين والإفريقيين - أكتوبر ١٩٥٨

(١) أعمال المؤتمر ونظامه ونتائجه :

عقد هذا المؤتمر في مدينة « طشقند » - عاصمة جمهورية أوزبكستان في المدة من ٧ الى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٨ ، وحضره نحو مائتين من مندوبي اتحادات الأدباء يمثلون حوالي أربعين بلدا من بلاد آسيا وأفريقية .

ودارت بحوث المؤتمر ومناقشاته حول موضوعين رئيسيين عولجا في جلسات عامة للمؤتمر ، وخمسة موضوعات عولجت في لجان خاصة .

فأما الموضوعان الرئيسيان فقد كانا :

١ - تطور أدب البلاد الآسيوية والأفريقية وثقافتها ودورها في الكفاح من أجل التقدم الإنساني والاستقلال القومي ومحاربة الاستعمار ، وفي الكفاح من أجل الحرية والسلام العالمي .

٢ - ثقافة الشعوب الآسيوية والأفريقية وعلاقتها بثقافة الغرب .

وأما موضوعات اللجان الخاصة فقد كانت :

(أ) أدب الأطفال ومغزاه التربوي .

(ب) نصيب المرأة في الأدب .

(ج) تطور الأدب المسرحي في البلاد الآسيوية والأفريقية .

(د) العلاقة بين الأدب والراديو والسينما والمسرح .

(هـ) تقوية الصلات الودية بين الكتاب الآسيويين والإفريقيين .

وكان قد افتتح في اليوم السابق لبدء المؤتمر معرض للكتاب اشتركت فيه كثير من البلاد الممثلة في المؤتمر ، وعرضت للجمهورية العربية المتحدة فيه

نماذج من الكتب الحديثة تمثل تطور التأليف القصصي والمسرحي وأدب الأطفال ورق فن الطباعة فيها ، مما جذب الكثيرين من الجمهور وأعضاء المؤتمر لمشاهدة الركن العربي والاطلاع على معروضاته . وقد دعى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة للقاء كلمة الوفود في إنتاج المعرض .

وفي الليلة السابقة لافتتاح المؤتمر عقيد اجتماع مشترك بين اللجنة التنظيمية المشكلة من رؤساء الوفود ، واللجنة التمهيدية التي أعدت جدول أعمال المؤتمر ، ونوقشت الخطة العامة ، واستقر الرأي على أن يتناوب رؤساء الوفود رئاسة الجلسات العامة حسب الترتيب الأبجدي لأسماء بلادهم ، وأن تكون اللغات الرسمية هي : الروسية والعربية والإنجليزية والفرنسية .

وحرصت كل دولة من الدول المشتركة في المؤتمر أن تلتقي في الجلسات العامة بيانا أو أكثر عن تاريخ أديها ومعالم تطوره ، ونصيبه في كفاحها من أجل الحرية والتقدم ، وعن مقومات ثقافتها ومكانها من تاريخ الثقافات الانسانية . وامتازت بعض هذه البحوث بعمقها وخصب مادتها . وكانت مناقشات اللجان الخاصة فرصة لتوضيح الاتجاهات الأدبية والفنية في آسيا وأفريقية ، ومدى ما حققته هذه البلاد من ربط بين آدابها ونهضتها الحديثة .

وكان وفد الجمهورية العربية المتحدة قد زود بال مادة الضرورية لهذه البحوث — اذ قامت لجنة التر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بتشكيل لجان فرعية لاعدادها — تمكف الوفد منذ وصوله طشقند على مراجعة هذه المادة ووضعها في صيغها الأخيرة ، وعهد الى أعضائه بالقائها كل في جهة تخصصه . ولم تكن وجهة نظر الجمهورية العربية المتحدة في موضوع « ثقافة الشرق العربي وصلتها بثقافة الغرب » وهو أحد الموضوعين الرئيسيين للمؤتمر قد أعدت ، فقام رئيس وفد الجمهورية باعداد بحث فيها والقاء في إحدى الجلسات العامة للمؤتمر ، مبرزاً فيه مكان الشرق العربي من التاريخ الحضاري للانسانية عامة ولقارنى آسيا وأفريقية خاصة ، وما كان له في القديم من أثر في ثقافة الغرب ، ثم ما كان للحضارة العربية الاسلامية من صلات بالحضارات الشرقية القديمة ، ومن أثر في النهضة الثقافية والأدبية والفكرية

للغرب الحديث . وقد صور البحث تجدد النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، وما كان لها من اتصال بثقافة الغرب ، وما كان للعرب المحدثين من كفاح في سبيل الإصلاح والترقي من ناحية ، وفي سبيل مقاومة التدخل الأجنبي من ناحية أخرى . وأبرز البحث ازدهار التأليف وتطور فنون الأدب في العالم العربي الحديث ، وعناية الجمهورية العربية المتحدة بموضوع التبادل الثقافي مع مختلف الأمم ، ومظاهر التنظيم والتعبئة الأدبية والعلمية في الجمهورية منذ قيام ثورة التحرير ، وإنشاء المجالس العليا للعلوم والآداب والفنون وجوائز الدولة لتقدير العبقريين وتشجيع الناهجين في مختلف الميادين ، وشعور الثقافة العربية بكيانها واستقلالها وأنها أصبحت في مركز يتيح لها أن تقوم بنصيبها مرة أخرى في خدمة الثقافة الانسانية وفي نشر الإخاء والسلام العالمي .

أما إقامة الوفود أثناء المؤتمر فقد أعد لها فندق فخم أتم بناؤه حديثا وزود كل وفد بمترجم أو أكثر لتيسير الاتصال والتفاهم وللعناية براحة الأعضاء . وأقيمت للضيوف حفلات استقبال وموسيقى وتمثيل وباليه وأوبرا وغناء بدأت منذ وصول بعض الوفود الى طشقند واستمرت خلال أيام المؤتمر ، وبدت مدينة طشقند في أنهي زينتها ليلا ونهارا ، وتسابق مواطنوها لتحية الوفود ، ونظمت زيارات لمعلم المدينة ومعاهدها ومنشآتها العامة ولبعض المزرعات الجماعية القريبة منها ، كما أقام بعض مواطني المدينة حفلات خاصة لبعض الوفود ازداد فيها التعارف وتبذلت المعلومات عن أحوال الأمم الآسيوية والافريقية ونهضاتها وآدابها .

وفي يوم ١٣ أكتوبر انتهت أعمال المؤتمر ، وتلى في الجلسة الختامية باللغات الأربع بيان عام موجه الى كتاب العالم ، وضعت صيغته لجنة من ممثلي ثلاث دول - من بينها الجمهورية العربية المتحدة - ولخصت فيه اتجاهات البحوث التي أقيمت في الجلسات العامة ، والمناقشات التي دارت في اللجان ، والرغبات والتوصيات التي قدمت ، وأبرز فيه أثر التراث الثقافي للأمم الآسيوية والافريقية في ثقافات العالم الحديث وفي التقدم الانساني ، وأعلن فيه تمسك هذه الأمم بالمثل العليا للسلام والصدقة بين شعوب الأرض قاطبة كما أبرزت

الصلة الوثيقة بين آداب الشعوب وحيولها ومصايرها، وضرورة توفير الظروف الضرورية للخلق الأدبي الصحيح من حرية واستقلال وسيادة قومية.

وأشار البيان الى أن كتاب آسيا وافريقية الذين اجتمعوا في المؤتمر - مستلهمين وحي «باندونج» و «دلمى» و «القاهرة» - يتوجهون الى كتاب العالم والى العاملين في الميدان الثقافي في أوروبا وأمريكا وأستراليا - دون نظر الى فوارق اللون والجنس والعقيدة - معلنين أن هذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها في صعيد واحد مثقفون من القارتين الكبيرتين يمثلون القارة وخمسة من ملايين المواطنين. وهؤلاء المواطنون الوارثون لأقدم الحضارة، والذين يؤلفون ثلثي الجنس البشري، قد حاول الاستغلال والاستعمار والتفريق العنصرى أن يقف حائلا دون تقدم مدنياتهم، وأن يسلبهم حرياتهم وثرواتهم ويضيق عليهم في أوطانهم، ويقضى على ثقافتهم ولغاتهم. ولكن هذه المحاولات عجزت عن أن تقضى على لغات الأمم الآسيوية والافريقية وثقافتها القومية وان كانت قد نجحت في تعويق نموها.

وفي مائتي السنة الأخيرة شغلت آداب هذه الأمم بتسجيل كفاحها ضد السيطرة الأجنبية والتحكم الاستعماري، وبالتعبير عن مشاعرها وعن إيمانها بحق الانسان في أن يقرر مصيره، وحق الشعوب في أن تحيا حياتها الحرة الكريمة، فانتقلت من كثير من كتبها وقصائدها وأغانيتها ورواياتها روح الارادة والتصميم والنضال، وارتفع صوت الكفاح ضد السيطرة الأجنبية:

ان مؤتمر «طشقند» يؤكد الصلة الوثيقة بين الأدب الخالق وكفاح الشعوب، وان الكتاب ليلزكون أن الجهود العظيمة في ميدان الابداع الأدبي والثقافي لا يمكن أن تنجح الا في جو من الحرية، وأن حياة الكتاب مرتبطة بحياة شعوبهم. واذا كان كتاب آسيا وافريقية يعملون على تقوية الأواصر مع كل شعوب العالم - ومن بينها شعوب الغرب - فانهم يرفضون تقسيم الثقافة الى فاضلة ومفضولة والى شرقية وغربية. وهم لهذا سيجاهلون في زيادة التبادل وفي المحافظة على التراث الثقافي للعالم.

ويختم البيان بالفقرة التالية الموجهة من أعضاء المؤتمر الى كتاب العالم :

« هذا كله تدعوكم أن تنضموا اليها في محاربة أدب التفرة
والبغض الذى يسم عقول الكبار ويفسد أرواح الأطفال ، ولناديكم
أن تسيروا معنا في البحث عن الحقيقة والجمال والحرية ، وفي خلق
أدب يرتبط بالحياة والناس ويساعدهم على أن يعملوا لسيادة العقل
والعدالة على الأرض ... »

عاشت وحدة الكتاب الآسيويين والافريقيين ..!

عاشت الحرية والاستقلال لجميع الشعوب ..!

عاشت آداب الشعوب وثقافة الشعوب ..!

عاش السلام ... »

وكان مما أوصى به المؤتمر انشاء مكتب دائم للكتاب الآسيويين
والافريقيين - تمت الموافقة على أن يكون في « ميلان » وعلى أن يكون له
فرعان أحدهما في بلد آسيوى والآخر في بلد افريقى ، وعلى أن يتولى المكتب
بحث الوسائل التى تعين على تقوية الروابط بين الكتاب الآسيويين والافريقيين :
كانشاء مجلة والعمل على تبادل ترجمة الأعمال الأدبية وانشاء صندوق لمساعدة
الكتاب وغيرها من الوسائل .

ووافق المؤتمر - فى اجماع وترحيب - على قبول الدعوة التى وجهها
وفد الجمهورية العربية المتحدة فى الجلسة الختامية العامة للمؤتمر لعقد الدورة
التالية لمؤتمر الكتاب الآسيويين والافريقيين فى القاهرة سنة ١٩٦٠

ونوه جميع من حضروا المؤتمر بنجاحه فى تقوية الصلات بين أدباء آسيا
وافريقية ، وزيادة التعارف والتعاون وتبادل المعلومات بينهم وابراز اتجاهاتهم
الرئيسية فى فهم وجهودهم المشرفة فى نهضات شعوبهم .

(٢) وفدا لجمهورية العربية المتحدة ونشاطه في المؤتمر .

تألف وفد الجمهورية العربية المتحدة في المؤتمر من ثمانية أعضاء ، خمسة من الإقليم الجنوبي وثلاثة من الشمالي .

وقد عقد الوفد قبل سفره جلسة بدار المجلس الأعلى للفنون والآداب بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٩٥٨ حضرها السيد سكرتير عام المجلس الذي أطلع الأعضاء على المراحل التمهيدية التي سبقت المؤتمر وناقش الأعضاء مهمتهم وانفقوا على خطوطها الرئيسية واختاروا من بينهم :

الأستاذ محمد خلف الله أحد عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رئيسا للوفد والدكتور ابراهيم الكيلاني المدرس بجامعة دمشق وكيلا للوفد والأستاذ مرسى سعد الدين بالمجلس الأعلى للفنون والآداب سكرتيرا للوفد

وعند وصول الوفد الى طشقند عقد سلسلة اجتماعات قسم فيها العمل بين أعضائه واختار منهم ممثليه في مختلف اللجان ووضع البحوث في صيغها الأخيرة وناقش التوصيات التي سبقت بها للمؤتمر وأقرها .

وقد رحب الوفد بما أبدته سائر الوفود العربية من رغبتها في الاجتماع به وتلقت خططها معه ، وكان الوفد موضع الاحترام والتقدير من الجميع فقد حرصت كثير من وفود البلاد الكبرى على مشاورته وتعرف رأيه واتجاهه في كثير من المسائل كما كان رئيسه غالبا يدعى ليكون أحد الذين ينربون عن بقية رؤساء الوفود في لقاء الكلمات في المناسبات العامة أو الرسمية .

وأظهر أهل طشقند عناية خاصة بوفد الجمهورية وبالوفود العربية وقام كثير منهم بدعوة الأعضاء العرب الى منازلهم والى مساجدهم ومكباتهم ومنشآتهم التربوية . وطلبت كثير من الصحف وهيئات الاذاعة والتلفزيون من كثير من أعضاء الوفد كلمات وأحاديث ومقالات عن انطباعاتهم من طشقند ومؤتمر الأدباء ، وعن تطور النهضة في مختلف نواحيها في الجمهورية العربية المتحدة .

وفي اليوم التالي لانتهاؤ المؤتمر دعى وفد الجمهورية العربية المتحدة وبعض الوفود الأخرى لحضور الجلسة الأولى من مؤتمر كتاب أزيكستان الذي افتتح في طشقند يوم ١٤ أكتوبر وللتحدث في هذه الجلسة للمؤتمرين .

(٣) ومن ١٥ إلى ٢٠ أكتوبر بدأت حلقة ثانية في نشاط وفود المؤتمر فقد وجهت إليها الدعوات من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفيتي للزيارة والاجتماع بممثلى اتحادات الأدباء فيها وحضور بعض الحفلات التذكارية التي أقيمت فيها . وقد استجاب وفد الجمهورية العربية المتحدة لبعض هذه الدعوات فسافر ممثلون له الى جمهورية طاجكستان وحضروا العيد التذكاري لشاعرها القديم أبي عبد الله الرذكي وسافر آخرون الى جمهورية جورجيا واشتركوا في أفراس العيد التذكاري لانشاء عاصمتها « تيلس » ، وجماعة ثالثة من الوفد انجهدت الى موسكو لزيارة معالمها ومعاهدها والاجتماع بأدبائها . وقد كانوا جميعا موضع الحفاوة الخاصة في البلاد التي زاروها وفي الاجتماعات والحفلات التي حضروها وتحدثوا فيها . وعنى بعض أعضاء الوفد - وأنا منهم - بزيارة جامعة موسكو ومعاهد الدراسات الشرقية في بعض الجمهوريات . فزرنا في « طشقند » معهد العلوم الشرقية واطلعنا على نواحي نشاطه التي منها نشر أعمال ابن سينا والبيروني باللغتين الروسية والأزبكية - وقدهدانا المعهد مجلة مجلدات منها . كما أهداه أعضاء الوفد بعض مؤلفاتهم وزرنا في « موسكو » معهد الدراسات الشرقية وأطلعنا الأساتذة فيه على مشروعاتهم التي يعتزمون القيام بها في السنوات السبع القادمة من دراسة نواحي النهضة في العالم العربي المعاصر ، وأهدونا بعض منشوراتهم أيضا . واجتمعنا في « لنجراد » بأساتذة معهد الدراسات الشرقية فيها فأحاطونا علما بما قاموا ويقومون به من دراسات عربية كلاسيكية ومعاصرة وأهدونا بعض كتبهم . هذا الى المتاحف والمعلم التي شاهدناها : كتحف الارمناج في لنجراد وقصر الكرملين ومتاحفه في موسكو والمسجد الجامع في طشقند ومسجد لنجراد وآثار سمرقند وغيرها .

وفي يوم ٢٠ أكتوبر كانت الوفود-جميعها على موعد مع اتحاد أدباء موسكو ، فأقيم في صالة تشايفكوفسكي اجتماع أدبي كبير تبودلت فيه الأحاديث والخطب وتلاه حفل سمر . ثم شهدت الوفود العربية وبعض الوفود الأفريقية حفلا ثانيا يوم ٢١ أكتوبر أقامه بعض الكتاب السوفيتين . وشهد وفد الجمهورية العربية المتحدة في مساء ذلك اليوم حفل الاستقبال الذي أقامه المشير عبد الحكيم عامر في أحد فنادق موسكو الكبرى ، واستمع الوفد لخطاب المشير ولخطاب رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي خروشتشوف . وفي يوم ٢٢ أكتوبر شهدت الوفود حفل الاستقبال الذي أقامته الحكومة السوفيتية في قصر الكرملين لتكريم أعضاء المؤتمر وخطب فيه خروشتشوف خطبة طويلة نوه فيها بأعمال المؤتمر وبأثر الأدب في حياة الشعوب . وتكلم فيه ممثلون لبعض الوفود كان من بينهم رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة . واستجابة لدعوة وصلتنا من اتحاد أدباء تشيكوسلوفاكيا قام ستة منا بزيارة «براغ» في طريق عودتنا إلى الوطن ، وقد قضينا هناك يومين في ضيافة الاتحاد، زرنا فيها معالم المدينة وعقدنا اجتماعين أحدهما مع ممثلي هيئات النشر، والثاني مع ممثلي اتحاد الأدباء . وبمنا في الاجتماعين بعض مشروعات التبادل الثقافي والأدبي واطلعنا على نماذج مما ترجم التشيكوسلوفاكيون من الأدب العربي قديمه وحديثه إلى لغتهم . وقد أهدانا الاتحاد بعض مطبوعاته ونسخا من كتب مصورة أنيقة الطبع عن تشيكوسلوفاكيا وفنونها الشعبية . وعدنا عن طريق زيورخ فوصلنا الوطن يوم الثلاثاء ٢٨/١٠/١٩٥٨

(٤) بعض ملحوظات ومقترحات :

١ - كان واضحا للجميع ان مكانة الجمهورية العربية المتحدة عالية في ذلك المحيط الدولي ، وكان ينظر الى الجمهورية باهتمامها عاملا فعالا في توجيه التفكير وحل المشكلات . وكان للشعور بهذه المكانة أثر في نشاط وفد الجمهورية وملكه ووحدة تفكيره . وقد لمس الوفد بصفة خاصة

من السيد « شرف رشيدوف » رئيس المؤتمر كل عناية وتقدير . مما ظهر أثره في استقباله الذي أقامه للوفد وفي مشاوراته معه وتكريمه إياه في المناسبات العامة . وترحيبه بأن تكون الدورة القادمة في القاهرة . ويرى الوفد من الحق أن ينوه بما كان للسيد « رشيدوف » وشخصيته البقة للحازمة من أثر في نجاح المؤتمر وتوطيد العلاقات الطيبة بين الوفود . كذلك وجد الوفد كل رعاية ومودة من السيد محي الدينوف نائب رئيس الحكومة ، والكاتب الروسي المشهور سفيرمانوف ، والشاعر المعروف « طورسون زادة » وغيرهم من القادة والفكرين الذين زاروا الجمهورية العربية المتحدة في المدة الأخيرة .

٢ - حرصت بعض وفود الدول الكبيرة على أن تجلب معها من بلادها هدايا من الكتب والمخطوطات والتحف . وكان لذلك أثر طيب في صلاحها بالوفود الأخرى وبالهيئات المضيئة في طشقند ، وفي التعريف بهاذج من الفنون القومية لتلك الدول .

٣ - عينت بعض الدول الكبرى بأن يرسل المسئولون فيها رسائل تحمل تمنياتهم الطيبة . وقد قرئت هذه الرسائل في الجلسات العامة وقوبلت بعاصفة من التصفيق والتقدير . ومن بين هذه الرسائل رسالة من السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبدالناصر ، وأخرى من السيد أنور السادات سكرتير عام المؤتمر الإسلامي بالقاهرة ، وثالثة من السيد يوسف السباعي سكرتير عام المجلس الأعلى للفنون والآداب .

٤ - كانت الناحية التنظيمية في المؤتمر متقنة ، وكان خبراء الترجمة بين اللغات مثالا في الكفاية وسرعة البديهة واتقان الأداء . وقد عني اتحاد أدباء طشقند بحشد خير القوى الفنية لأعطاء وفود المؤتمر صورة واضحة من التطور الفني في جمهوريات آسيا الوسطى . وبما لفت النظر اتقان بعض الفنانين والفنانات ألوانا من الغناء والرقص الآسيوي الإفريقي : العربي والهندي والصيني وغيرها . وقد نجحت الهيئات المحلية في أن تتخذ من هذه الألوان حجة للوفود الكبيرة المشتركة في المؤتمر مما كان له في نفوسهم وقع حسن .

٥ - مثل هذا المؤتمر فرصة ثمينة للدولة الداعية إذا أحسنت الإعداد لها. ولهذا شعرنا - نحن أعضاء وفد الجمهورية بغبطة بالغة لقبول المؤتمر دعوة يلدانا في أن يعقد دورته القادمة في القاهرة . وأحسننا بضرورة الاستعداد الكامل لتلك الدورة بالتنظيم الذي يجب أن يبدأ منذ الآن لتحديد الموضوعات وترتيب الأماكن لإقامة الوفود والرحلات التي ستظم لها والمعاض والمناحف والمعاهد والمدن التي ستزورها ، وإعداد كتب ممتنة الطبع جميلة الاخراج عن نهضة الجمهورية في مختلف نواحيها - وخاصة في هيئاتها وفنونها الأدبية ، وعن تاريخ الأدب والثقافة العربية والتراث الشعبي ، وقوائم بالكتب العربية التي ترحمت الى اللغات الأخرى ، وبالكتب الأجنبية التي ترحمت الى العربية ، مع نماذج فاخرة منها تهدي لرؤساء الوفود ولكبار الشخصيات التي ستشارك في المؤتمر . ومن الطبيعي أن توجه عناية خاصة الى تنظيم الناحية الترفيهية التي ستؤديها فرق الفنون الشعبية والأوبرا والتمثيل والباليه ومعاهد التربية الرياضية وغيرها . ومن الأهمية بمكان التفكير منذ الآن في إعداد خبراء وخبيرات في الترجمة على مستوى عال في الدقة والكفاية والنضج الثقافي . فقد أصبح هذا العنصر ضروريا لنجاح أى مؤتمر دولي .

محمد هتاف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

ورئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة

في مؤتمر طشقند للكتاب الآسيويين والافريقيين